أحمد القرملاوي

قميص لتغليف الهدايا

قصص

الدار المصرية اللبنانية

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

قميص لتغليف الهدايا

قصص..

الكاتب: أحمد القرملاوي

عن الرواية..

مثل غدير صافٍ، تتهادى مياهه بوداعة أو تندفع بعنف، يظل صفاؤه يكشف عن الأعماق بروعة، هذا ما يتبادر إلى خاطري فور أن أذكر الحالة الإبداعية التي يشكلها الكاتب الجميل أحمد القرملاوي، وهي حالة استثنائية بذاتها وبإبداعها، فهو من الكتّاب النادرين الذين يجيدون كتابة القصة كما كتابة الرواية، بالشروط والتجليات الخاصة بكل منهما. لقد قرأت هذه القصص البديعة المتقنة بإعجاب وحب وكثير من التأثر، منها ما ذبحني بشعاع من نور، ومنها ما انتزع من صدري تنهدات الأسى، ومنها ما مس وتر الغضب، لكن سمتها المشترك، كان تلك الشفافية، ورهافة البوح، ونقاء الروح، وهو سمت الكاتب نفسه، كإنسان.

د. محمد المخزنجي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء خاص

إلى نرمين رشاد..

شريكتي في صناعة الحكايات..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صلاة ق 4

الآن اطمأنَّ قلبُه، نسبيًّا على الأقل، ليس فقط لثقتِه في عودة دولاب العمل للدوران بدءًا من اليوم، وحتى يمرَّ المأزق على خير، ولكن أيضًا لإعادة تفعيل مهاراته القيادية، تلك التي أهملها لسنوات طوال، واحتاجَت لأزمةٍ معقَّدة كهذه لتشحذ شفراتها من جديد. وكقائد سابق، اعتبر الأزمة الحالية معركته التي لا بد أن يخوضها بما لديه من سلاح، واضعًا في الحسبان طبيعة أرض المعركة الجغرافية، والإمكانات اللوجستية والمعلوماتية المتاحة، وهذا ما فعله بدقَّة حين جلس إلى طاولة السفرة على مدار يومين، مُنفردًا بذاته وبأزمته، وقد شغَّل مروحة السقف لتدفع الهواء الراكد، وفرَدَ لوحات المشروع أمامه مُستخدِمًا منفضة السجائر كثُقلٍ يمنعها من أن تطير، وأخذ يتأمَّل لوحة الأساسات بتمعُّن شديد، ثم لوحتَي الأعمدة والموقع العام، قبل أن يعود للوحة الأساسات ثانيةً ويتتبَّع السِّمِلات التي تربط بين القواعد الخرسانية، راسمًا أبعاد الأزمة بمقياس رسم دقيق.. حتى هبط الإلهام عليه، كما وحيٍ يجيء في موعده.

اليوم يُعيد فَرد اللوحات ثانيةً، هذه المرة على طاولة المكتب في كرفانه الضيق عند مدخل موقع الإنشاء، فقد حضر للموقع المحدوف بعيدًا في عمق الصحراء، مبكِّرًا جدًّا، حتى إن الخفراء والعمال المقيمين فيه لم يكونوا قد خرجوا بعد من غرفهم المبنية بالطوب الأحمر، ولا كان أيٌّ من المهندسين والمشرفين والعمال الآخرين قد توافد على الموقع في هذه الساعة المبكِرة، فتحقَّق له ما أراد من أن يسبق الجميع، حتى يُفاجئهم حين يصلون بما أعدَّه لحلِّ أزمتهم جميعًا.

أشعل مكيف الغرفة، وجلس خلف طاولة المكتب المغطّاة باللوحات، وشرع يتَّصل بالجميع تباعًا ويطالبهم بالحضور في مكتبه، بادئًا بعامل البوفيه، ثم بدأ يُشعل السجائر واحدةً في عقب الأخرى. وخلال نصف ساعة، كان الجميع قد توافدوا على الكرفان، جلس مَن سبَق منهم على الكراسي القليلة المتاحة في غرفة المكتب، بينما انحشر أكثرهم وقوفًا في الفرجات والممرات وأمام باب الكرفان، حتى إن البعض وقف بالخارج ومدَّ رأسه عبر فتحة الشباك التي يخرج منها دخان السجائر. أمهل الجمعَ بعض الوقت حتى ارتفع اللغط، وتأكَّد من ترقُّبهم جميعًا لسماع ما لديه.

بدأ بأن شكرهم جميعًا على سرعة تلبية الدعوة لهذا الاجتماع الطارئ، ثم أخذ يستعرض الموقف كاملًا، بكلمات واضحة ومُحدَّدة.. كلهم يعلمون بخلفيَّته القيادية، قبل أن يُنشئ شركة المقاولات التي يعملون فيها، ولذلك يفهم جيدًا طريقة الجهاز صاحب المشروع في التفكير، وكيف يُدير المواقع التي تُعَدُّ أرض المشروع إحداها. لو فاحت رائحة الحادث ووصلَت هناك، سيُسحَب المشروع بجرَّة قلم، لن تحمينا شروط التعاقد ولن يتدخَّل اتحاد المقاولين، طالما تعلَّق الأمر بالجهاز ومشروعاته.

النتيجة أن الجميع سيتم تشريدُه، ببساطة فَرْم الورق الدَّشت، ولن تشمَّ شركتنا رائحة مشروع كبير من جديد، لو ضمَّها الجهاز للائحة السوداء. هذه ضريبةٌ يمكننا تحمُّلها، فقد ربحنا الكثير في السنوات السابقة ولسنا في حاجةٍ إلى المزيد، أما ما لن نتحمَّله أبدًا فهي المحاكمات، وهي النتيجة الطبيعية التي تنتهي إليها تحقيقات النيابة

في مثل هذه الحوادث؛ سيتم اعتبار أي إهمال أو غفلة أو حتى سوء حظ - وهي أمور تحدث في مواقع الإنشاء كل يوم - جريمةً ضد الدولة، تمس مباشرةً مصلحة الوطن، وتَحول دون تقدُّمه.

«من منّا مُستعِد لتحمُّل هذه البهدلة؟!»

بهذا السؤال اختتم مقدمته، وبهذه المقدمة أقحمهم جميعًا في أزمته، فصارَت دائرة الرؤوس المتحلِّقة حوله مهبطًا لكارثة وشيكة، بل يمكن جمعها في باقة واحدة والزجُّ بها أسفل مقصلة هائلة الحجم. الآن تأهَّبت الآذان لاستقبال المخرج السماويّ، الذي خطَّط له على مدار اليومين الماضيين كي يُنقذ الجميع.

أعاد فَرْد لوحة الموقع العام، والتقط أقلام التحديد الملونة من درج المكتب، ووقف يرسم التخطيط العام للمشروع على اللوحة البيضاء المعلَّقة وراء طاولة المكتب؛ رقعة الأرض باللون الأسود، البوابات، الشوارع الداخلية، مبنى المول التجاري بالأزرق، الكرفان الذي يجتمعون فيه الآن، ثم رسم باللون الأحمر بعض الأسهم وعلامات التوضيح، وأكمل يقول: «أمامنا حلٌ وحيدٌ لا ثاني له. أن نقوم بصبِّ قاعدة خرسانية جديدة فوق ق4، هنا.. في هذا المكان على وجه التحديد، فالقاعدة الحالية صارت بعد الحادث غيرَ صالحة من الناحية الإنشائية. ستُواجهنا بطبيعة الحال مشكلةٌ لا بد أن أغلبكم قد انتبه إليها، وهي ارتفاع منسوب القاعدة الجديدة عن باقي القواعد الخرسانية.. محلولة بإذن الله، فسنقوم بعد الصبِّ برَدْم متر إضافي فوق باقي الأساسات، لتعويض فارق المنسوب، ثم نُسارع بصبِّ أرضية البدروم وإخفاء الأساسات تمامًا، وربما أسعفَنا الوقت، واستطعنا عَزلها من الخارج قبل أن نُفاجأ بزيارة من إحدى القيادات».

جال بعينَيه بين الوجوه الصماء، أدرك انهماكهم في محاولة الطفو فوق التفاصيل والخطوات اللازمة، فقرر إغراقَهم شبرًا إضافيًّا. أمسك بالقلم الأخضر قائلًا: «طبعًا تتساءلون عن أرضية البدروم التي سترتفع، وهو الأمر الذي ستُلاحظه اللجنة لا محالة وقت المعاينة، لدينا الحل بإذن الله». أخذ يرسم ببطءٍ خطًّا متقطِّعًا باللون الأخضر، يصِل بوابة الموقع بمدخل المول، وأكمل يقول: «سنقوم برفع منسوب الشارع تدريجيًّا، بدءًا من بوابة الموقع ووصولًا إلى حدود المبنى، بفارق نصف متر على الأقل، فتندثر المشكلة كأن لم تكن».

تابع عيونهم فيما تجوس في متاهة المشاكل والحلول، وتفشي سرَّ أذهانهم المشوَّشة. أدرك كم تمهَّدت أرض المعركة لحسم الموقف وجني الغنائم. أردف قائلًا: «أنتم قوام هذه الشركة، بدونكم لن تقوم لها قائمة، لذلك سنقوم بسداد أجوركم كاملةً عن فترة امتناعكم السابقة عن العمل. لكننا صرنا في أمسِّ الحاجة للحاق بجدول التنفيذ الزمني، لذلك سنحتسب اليوم بيومين لكل من يعمل أربع ساعات إضافية في الوردية التالية، حتى نستدرك الخطة. كما سنقوم بصرف مكافآت لائقة لو استطعنا تحقيق ذلك في غضون أسبوعين».

افترَّت بعض الوجوه عن بسمات متردِّدة، فاطمأن لاجتيازه حقل الألغام بأمان، وشرع يستكمل السَّير بسرعة أكبر.. قال لهم: «ليُفصِح الآن من لديه أي تعليق».

أطبقِ الصمت أكثر كثافة من ذي قبل. وجد الفرصة سانحة لإنهاء الكلام: «إذا لنُصلِّ صلاة الغائب على المرحوم خالد».

نهض بدون تردُّد، لم ينظر لأي منهم في عينيه، لم يتوقَّف لمصافحة أحد، ولا حتى للتحقق من لحاقهم به، بل إنه هبط درجات الكرفان قفزًا، وخبَّ بسرعة وعزْم صوب رُقعة الأرض المحفورة، وبرشاقةٍ حاول اصطناعها هبط السلم الخشبي الموصِل إلى باطن الأرض، وعبر مُحاذِرًا أسفل السقالة المعدنية، مارقًا بنعومةٍ جهة القاعدة الخرسانية ق4 التي تتوسَّط الرقعة المحفورة، والتي حفظ مكانها عن ظهر قلبٍ من طول ما تأمَّل لوحة القواعد. شقَّ طريقه إليها كأنها ملاذُه اليومي المعتاد، كأنه يستريح عليها كل يوم ليشرب الشاي خلال راحة الغداء، كأنه يرسم عليها بقطعة الطباشير قلبًا وحرفَين، أو يكتب اسمه بجوار لقبه الأثير.

وضع فوق حافَّة القاعدة سلسلة مفاتيحه، وبجوارها خوذته البيضاء الناصعة، وشرع يُراجع اتجاه القِبلة في تطبيق الصلاة على الهاتف المحمول.

وفيما يدور حول جسم القاعدة، لمح طرفَ حذاءٍ مطاطيٍّ يبرز من أعلاها؛ تذكَّر أن بوز الحذاء هو ما أخبر بمكان خالد - عامل الصبَّة المتوفّى - حين افتقده العمّال والمشرفون بعد صبَّة القواعد. ارتسمَت في مخيِّلته صورةُ خالد، بينما يمسك وحده بخرطوم مضخَّة الخرسانة العملاقة، يوجِّهه بعزم قوته، ليقذف الخرسانة الجاهزة بداخل ق4، في هذه البقعة انزلقَت قدمُه على الأرض الزلِقة، وعلى هذا النحو سقط بداخل القاعدة الهائلة حين ابتلعَته، رأسه لأسفل كما زرع البصل، ولا دليل على وجوده غير بوز الحذاء.. لا بد أن تكون صرخته الأولى قد تلاشَت في ضوضاء المضخَّة العملاقة، أما الثانية فقد انكتمَت تحت الخرسانة المنهمرة من أعلاه. مسكين خالد. لم ينتبِه زملاؤه لاختفائه حتى انتهَت الصبَّة، فيما يزعمون اليوم محاولتهم إنقاذه، ويتخلَّصون من ذنبه باتهامهم الإدارة بالتقصير في توزيع أحزمة الأمان.

لم يعمل حسابًا لهذا الحذاء البارز كما شاهدِ قبرٍ أعلى القاعدة.. لن يستطيعوا الصلاة على خالد في وجود الحذاء، ولن يتمكَّنوا منْ إعادة الصبِّ طالما استمرَّ يذكِّرهم بالحادث. لا بد من بتره.

نظر إلى الخلف، فلم يجد أحدًا يقف وراءه، لم يتبعه أيٌّ منهم لداخل الحفرة. تسلَّق بعينَيه جدار رقعة الأرض المحفورة، فوجدهم مُصطفّين أعلاها قبالة السلم الخشبي، يتابعون شروعَه وحيدًا في صلاة الغائب. أدرك أن الخطة لن يُكتَب لها النجاح طالما بقيَت هذه الوجوه الواجمة، لا بد من تغييرها.. فكَّر أن يمنحهم إجازة مدفوعة الأجر، ويجلب طاقمًا آخر يجزّ الحذاء أولًا من فوق القاعدة، ثم يستكمل باقي الخطوات كما شرَحها قبل قليل، وسيري فيما بعد إن كان هؤلاء المصطفون أعلى الجدار يستحقون فرصةً جديدة، فكل ما تُفصح به نظراتُهم الميتة هذه لا يُبشِّر بخير. هكذا استقرَّ لديه الرأي، قبل أن يستدير مُكبِّرًا لصلاة الغائب بمفرده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

بيت من جير

كانت أولَ شيء أشتريه لنفسي منذ خلا عليّ البيت. كانت أمنيتي التي لم تبرح يومًا خيالي، فيما كانت أمي - رحمها الله - تقف أمام تحقيقها بالمرصاد.. «أبدًا لن تعيش في بيتي سلحفاة!»، كانت تقول بإصرار، وكنتُ أستميتُ في الدفاع عن سلحفاتي غير الموجودة بعد، فأقول إنها أرقّ مخلوق على وجه الأرض، تلك التي دائمًا ما تقصِر الشر مع الجميع، فتؤثر التراجع أمام التهديدات على إلحاق الأذى بأي مخلوق. ثم يأتي بعد ذلك مَن يصِمُها بأنها قدَم شر.. إنه لظُلم بيِّن لهذه المسكينة، المسالمة.

وعلى الرغم من استماتتي في الدفاع عن سلحفاتي المتخيَّلة، لم أنجح في إقناع أمي وتحقيق حُلمي باقتنائها، وحتى حين كبرتُ قليلًا وصرتُ قادرًا ببعض العناد على إنفاذ رغباتي، وجدتُني راغبًا عن إغضاب أمي، فقد كانت مريضةَ سكر وضغط، ولو حدث وأُصيبَت أمي بأي مكروه، فلن يجد أصحاب الأنوف الطويلة أسهل من لوم سلحفاتي المسكينة المسالمة. لذلك ارتضَيتُ أن أُنحّي جانبًا فكرةَ اقتناء السلحفاة، لردح طويل من الزمن. لكنْ حين ماتَت أمي وأمسى البيت فارغًا عليّ، شعرتُ بحاجتي لوجود روحٍ أخرى تشاركني هواء البيت، وعادَت فكرة اقتناء السلحفاة تُلِح عليّ أكثر من أي وقتٍ مضى.

انتظرتُ حتى مرَّ الأربعين، ووصَّلتُ بنفسي آخر المعزّين والمواسين حتى باب البيت، وبدأتُ التفكير بجدية في أمر شراء السلحفاة. صرتُ أتمشّى كل مساء في شارع جسر السويس الصاخب بالحياة، المليء بمحلات بيع العصافير والحيوانات الأليفة، أتوقَّفُ أمام الأقفاص المتراصة، أتحسَّسها، أستشعر ذبذبات الخوف التي تصدر عن الحيوانات الحبيسة؛ جميعها ينزعج إذ يقترب الزبائن من الأقفاص، بعضها يختبئ بداخل الجحور، والبعض ينتابه الرعب الجنوني، فيما عدا السلاحف؛ وحدها تبقى ساكنةً لا تتحرَّك، أقصى ما قد يندُّ عنها أن تتراجع برأسها لداخل درَقتها، كما لو أنها جَدَّةٌ آذَتها ضوضاء الأحفاد، فانسحبَت لغرفتها تنشد الهدوء.

أطلقتُ على إحدى السلاحف المعروضة اسم: نونة، اسم جدَّتي لأمي، وطلبتُ شراءها من البائع المشغول باستمرار. حملتُها لبيتي مع طعام أسبوع من الخيار والخس. غسلتُ الخيار جيدًا بالماء والخل، وقطَّعتُه شرائح رفيعة تُناسب فمها الصغير، لكنها رفضَت يدي الممتدَّة نحوها بشرائح الخيار، تمنَّعَت ليوم، ليومين، لثلاثة أيام مرَّت عليَّ كأنها أسابيع، ووجدتُ قلقي يزداد رسوخًا مع كل محاولة.. الموت يُنذر بزيارة جديدة للبيت، بعدما استدعى أبي، وجدَّتي، ثم اختطَف أمي، والآن يريد نونة، لن تحميها الدرقة الصلبة من قبضته اللعينة.

عدتُ لصاحب المحل؛ قال إن الأمر طبيعي جدًّا ومعتاد، فالسلحفاة تحزن لفراق بيتها حتى تعتاد المكان الجديد، وقد تمتنع عن الأكل والشرب عدَّة أيام، دون أن يكون لذلك أثر يُذكَر على صحَّتها، ثم سألني إن كان في بيتي بلكونة مُشمِسة، وحين أومأتُ بالإيجاب نصحَني بأن أضع نونة فيها كي تتحمَّم بأشعة الشمس، فيهنأ لها العيش في بيتها الجديد.

سارعتَ بنقلِها لبلكونتنا المُطلة على الشارع الصاخب بالحركة والنداءات، فكأنما انتقلَت إليها حيوية الشارع سريعًا؛ صارت تُطِلُّ برأسها لترشُف أشعة الشمس، تتحرَّك بحُرية في أرجاء البلكونة، تقضِم نتوءات الجير المغلِّف للجدران، تأكل شرائح الخيار وأوراق الخس، بشهيةِ امرأةٍ حبلى.. «حمد الله على السلامة»، قلتُ لنونة بعد أيامٍ، بينما أراقبها من جلستي على كرسي البلكونة المصنوع من الخيزران، وأُسنِد ظهري بارتياح تام على الشلتة الرفيعة الملونة، وأظل أتابعها بغبطةٍ كأنها عروستي الحرون التي بدأت تلين، وشرعَت تخلع فستان الزفاف دون خجل.

فرَّغتُ من أجلها ساعات طويلة على امتداد اليوم؛ أجمع برازها المتناثر، أبدِّل طعامها الذابل، أمسح التراب عن سُفل الجدار حيث تنهش الجير بشراهة زائدة، أحتسي قهوة الصباح بصُحبتها، وأدندن لحنًا كنتُ أنام عليه قديمًا في حضن جدتي، نافخًا دخان السجائر بعيدًا عنها خشية إزعاجها. ثم صرتُ أجالِسها حين أتناول الغداء، الذي نقلتُ مكانه لطاولة البلكونة؛ أجلس على الكرسي الخيزران القديم وأضع أمامي صينية الطعام، كما كان أبي يفعل دائمًا ويُثير إحراجي أمام الجيران، حتى إن جارًا مُسِنًّا لنا لاحظني ذاتَ يوم، فقال حين رفعتُ بصري إليه: «اللي خلّف ما مات»، ما جعلني أنتبه لكوني أطيل البقاء في البلكونة أكثر مما ينبغي، جالسًا بالفانلة الداخلية ذات الحمالات، التي تُبرز حجم كرشي وتجعل مني صورةً لأبي. انتبَهتُ أيضًا لكون درقة السلحفاة صارت صورةً مُطابقة لسيراميك البلكونة، حتى إنني كدتُ لا أميِّزها من صفحة الأرضية السيراميك، حين تسحب نونة رأسَها لداخل الدرقة. ساءلتُ نفسي: كيف لم أنتبه لهذا التطابق يوم وضعتُها في البلكونة؟ أم أنها أخذَت تتماهى ببطء مع محيطها الجديد!

شغلني لغز تلوُّنها لعدة أيام تالية، خاصة وقد أخذَت نونة تنمو بسرعة عجيبة، ما دفعني لأن أمرَّ على صاحب المحل وأستفسر منه عما يشغلني، لكن الرجل أهملني لبعض الوقت، حين فطِن لكوني جئتُ فقط كي أطرح الأسئلة، وأني لا أعتزم شراء المزيد من الحيوانات أو الإكسسوارات، ثم استمع إليّ بنصف انتباه، وقال إن سلحفاتي من نوع السولكاتا سريع النمو، ولا داعي لأن أشغل بالي بمتابعة السلحفاة لهذه الدرجة، فالأمور عادية، عادية جدًّا. لكني حين صنعتُ بيدي قُبَّةً في الهواء، محاولًا وصفَ الحجم الذي وصلَت إليه نونة، حدجني بنظرة ارتيابٍ شديد، وقال: «مستحيل».

مضيتُ موقِنًا بغرابة الأمر، وبأن سلحفاتي ليست ذلك الكائن الأليف المسالم، الذي يُساير الحياة بنظرةٍ بلهاء مُتسامحة، ولا يُناصِب مخلوقًا العداء كما كنتُ أحسبها قبل اكتشاف اليوم، بل إنها كائن متوحِّش لا يُمكن توقُّعه، يقضِم جير الجدران ليمتصَّ الكالسيوم ويُغذِّي درقَته العجيبة.. كائن يُقوِّض بيتي، حتى ينمو بيتُه نموًّا غرائبيًّا لا يُصدِّقه الرجل!

خطوتُ بقلق لداخل البلكونة، وقفتُ بجانب الباب أرنو نحو نونة. سألتُها: ماذا دهاكِ يا جدَّتي الطيبة؟ هالَني الحجمُ الذي وصلَت إليه، وأفزعَني منظر بلاطات

السيراميك التي صارت تَغلف درقتها. خلال أسبوع سيمكنني استبدال البلاط المكسور بقالبَين أو ثلاثة من هذه الدرقة سريعة النمو!

حبَستُها بداخل البلكونة. صرتُ لا أطأ أرضها إلا لتزويدها بالماء والخس، بحسابٍ الآن، لا بإفراط حنون كما كنتُ أفعل في السابق، حتى البراز لم أقوَ على إزاحته، أخطف النظرة السريعة لجير الجدران الآخذ في التآكُل، وأعود لمحبسي بداخل الشقة. صرتُ أنا المحبوس بالداخل، لا هي، شبه معزولٍ عن ضوضاء الشارع الموحية بالحياة.. إنه القبر في صورةٍ مُخفَّفة.

حتى عذاب القبر لم أُرحَم منه، فقد صارَت نونة تقتحم أحلامي في هيئتها الضخمة القادمة لا محالة، تخطو ببطء لداخل الغرفة، وتشبُّ واقفةً على قائمتَيها الخلفيَّتَين، وتتلمَّس طريقها لسطح السرير، تُحرِّك بوزها حركةً مضطربة، تتشمَّم قدميّ، تُمسك بطرف منامتي، تقضم أظافري وأطراف أصابعي، فأقوم مفزوعًا في وسط الليل.. كل ليلة تنهش المزيد مني، حتى بلغَت بعد أيام عظمة ساقي، وراحَت تلعق وتنهش فيها كما كانت تفعل في جير الجدران. لم يُجدِ النور الذي صرتُ أتركه مضاءً أثناء النوم في طرد الكوابيس، بل استمرَّت تُلِحُّ عليّ كأنها صراصير الليل. لكنني انتفضتُ ذات ليلة لأجد ظفرًا شبهَ مبتور فعلًا! صرختُ دون صوت، وقمتُ أتخبَّط حتى باب البلكونة؛ وجدتُه مغلقًا كما تركتُه قبل ساعات. كدتُ أُجَنّ.. تساءلتُ بفزعٍ لا يُمكن حياله ضبط النفس: كيف حدث ذلك؟! وحدَّثتُ نفسي بأن السكوت ما عاد ممكنًا الآن، إن لم أقم بالتصرُّف حالًا ودون إبطاء، ستأكلني السلحفاة!

ظللتُ مستيقظًا طوال ساعات، حتى شقَّت صيحةُ الفجر سكونَ الليل، أرهفتُ السمع لعدد لا نهائي من الميكروفونات، تصدح بأصوات معدنية من كل اتجاه، صرتُ أستسيغ تداخل النداءات لأول مرة، وقمتُ أتوضأ وأستعد للصلاة، راجيًا العون ممن لا تُدركه الحواس.. وأثناء تلاوتي التحيّات، دبَّت قدما زبّال الحي فوق سلم البناية، فسارعتُ بإنهاء الصلاة وفتحتُ باب الشقة مُنتظرًا صعود الزبّال.

«ثمة شيءٌ في البلكونة لا يُمكنني حَمله، استدعِ زميلَكَ كي تحملاه سويًّا».

ربما استثقل كلامي فقال لي: «دعني أحمله وحدي».

قلت: «لا.. إنه ثقيل».

نزل لكي يستدعي زميلَه سائق الكارو، وسرعان ما صعدا معًا ودلفا لداخل الشقة، قُدتُهما صوب البلكونة المغلقة، وبوجودهما خلفي عاودَتني الجرأة المفتقَدة، ففتحتُ باب البلكونة على مصراعَيه، وأشرتُ نحو نونة.

«هذه»، قلت، فسأل الزبّال: «هذه؟!»، فأومأتُ بالإيجاب، فما كان من سائق الكارو إلا أن انسحب بهدوء حتى باب الشقة، قائلًا لصاحبه: «سأنتظرك تحت»، وقبل أن يسحب الباب وراءه حدجَني بنظرة مُستريبة، ثم مضى ذاهبًا.. أما الزبّال، فقد حمَل نونة وخطا بها بخفة نحو الباب، ولم يكد يُصدِّق حين استوقَفتُه ونقدتُه مائة جنيه، فيما أتحاشى رؤية نونة المطويَّة تحت إبطه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الموت على صدر السندريلا

كان في أمسِّ الحاجة للهدوء التام، لتصفية الذهن، والابتعاد عن أي تشتيت، لشحذ شفرات الحواسِّ الخمس، الست لو استطاع، والتركيز فقط على متابعة رقصة الموت خطوة بخطوة، نغَمةً فنغَمة، حتى لا يُطوِّح به المركب المقلوب في إحدى هزّاته العنيفة الغادرة، كما فعل بكثيرين قبل هذه اللحظة. سَرَحانُه ولو لطرفة عين، لن يعني إلا الموت المحقَّق، ليس ثمة خيار آخر غير التشبُّث بحافَّة المركب، بانتباه شديد، كما يفعل الآخرون ممَّن لا يعرفون سباحة البِحار. هو أحدُ هؤلاء، فلم يعُم قبل هذا اليوم إلا عاريًا في المصرف الواقع على حدود بلدته، أو في بحيرة البرلُّس ذات المياه الكسولة الراكدة، مُبقيًا شاطئ بلطيم على مسافة ضربتَين فقط من ذراعَيه القويَّتَين. أما العَوم بملابسه الشتوية الثقيلة هذه، وفي بحرٍ مفتوح بلا غَور هكذا، فسيسقط به نحو القاع بسهولة سَحْب ثقل السنَّارة.

رغم ذلك، ومهما كانت درجة حرصه واستنفاره لجميع حواسه، فلا مفرَّ من أن تخور قُواه في النهاية، بنفس البساطة التي تداعى بها محرِّك المركب قبل قليل، فقد انهدَّ حَيله من قلة النوم والطعام، وخلال ثلاثة أيامٍ مرَّت عليه في عَرض البحر، لم ينَم لساعتَين متَّصلتَين، ولم يتناول ما يصنع وجبةً مُشبِعةً لطفلٍ حديث الفطام. لذلك أهَّب نفسه لاحتمالية الغرق شبه المحتومة، وقرَّر حين يقابل الغرقَ وجهًا لوجه، أن يلطِم الماء، بأقصى ما تستطيعه رجلاه وذراعاه، حتى يُفرِغ غضبه المكتوم مع ما تبقّى من عزيمته، فلا بد أن يسجِّل مُحاولته الأخيرة، العاجِزة على نحو ما، لتَرك نُدبةٍ على جبين البحر، قاتِله الذي لا غَور له ولا قلب، قبل أن يُسلِم بدنه لظلمة مائه وخَدَرها الأبديّ.

كل ما عليه حتى تحين لحظة المواجَهة، أن يظل مُنتبهًا ومُتحفزًا لأطول وقت ممكن، ناشِبًا أظافره في جسم المركب المقلوب، مُتابعًا حركاته الفجائية، الغادرة، عازمًا على البقاء ملاصقًا لهذه الجزيرة الخشبية طالما أمكنه ذلك.

وفي هذه اللحظة غير المواتية على الإطلاق؛ حيث آخر ما كان يريده أن يحدث ما يُشوش ذهنَه، أحس بزفرتها الملساء كبتلات الزهور، تُداعب شحمة أذنه من الخلف، تُلامس رقبته.. توترَت أعصابه أكثر مما كانت عليه، تسارعَت أنفاسه وضرباتُ قلبه، استكنَّت في أذنَيه ضوضاء الغرق، وحلَّ السلام بغتةً في محيطه الجنوني.. التفتَ لكي يتأكد من وجودها، فإذا بها تحبو نحوه فوق بطن المركب المقلوب، وتدفع بيديها الأجساد المتشبثة به حتى تصل إليه، وتنفخ في وجهه نكهتَها الشهية.

لم يكن مؤهَّلًا لحضورها الآن، ولا حتى راغبًا فيه، لا يريحه وجودها وسط هذه الأجساد الهزيلة، التي تُكابد الجوع والموت المحتَّم؛ ليس هذا أنسب مكان للقائهما الرومانسي، كما أن رائحته نتنةٌ لا تُطاق، لا تليق بحضورها الفردوسيّ. تمنى لو أنه استطاع صَرفَها ولو بشكل مؤقت، حتى يفرد ذراعَيه قليلًا ويغمُر جسمه في ماء البحر، ثم يعود للتعلُّق بحافة المركب من جديد، إذ ربما تخفُت رائحة العرق والنتن

ولو قليلًا، لكنها حضرَت على حين غفلةٍ منه، كما كانت تفعل طوال سنوات، بنفس دلالها المُنَكَّه ببراءةٍ طفولية، بشقاوة لاذعة تُثير جنونه

بيأسٍ همس إليها: «الظرف غير مُواتٍ على الإطلاق!»

تبسَّمَت، وقالت بمرح: «صدقًا تظن ذلك؟ هل تريد أن تموت دون أن أودِّعك؟!»

فقال: «هل تعتقدين أنني سأموت؟»

نظرَت من حولها في الأربع جهات، ثم قالت: «يبدو ذلك.. هل ترى احتمالًا آخر؟»

فكَّر في ارتقاء حافَّة المركب بصدره وذراعيه، يريد أن يقترب منها بعض الشيء، أن يُلامِس جلدها البض، أن يشتمَّ عبير شعرها، لكنه لم يجد الجرأة الكافية ليشرع في المحاولة، فقد كان يخشى فقدان توازنه، والسقوط نحو القاع المظلم. عوضًا عن ذلك فكَّر في دفع الجسدَين الملاصقَين له، حتى يُفسِح لها مكانًا إلى جواره، لكن محاولته باءت بالفشل، إذ يبدو أن الأجساد تزداد وزنًا تحت وطأة الهلع، أو أن الصراخ يشدُّ العضلات أكثر فأكثر.

قال بنبرة محبَطة: «أريد أن أجلس جوارِكِ، لكني لا أستطيع الحركة».

استدارَت، داعبَت طرفَ أنفه بإبهامَي قدمَيها الصغيرتَين، ثم شرعَت تحبو بمحاذاة الأجساد المتعلِّقة بالمركب، تتوقَّف عند أحدها، تُزيحه بقدمها نحو الماء، وتهز قبَّعتها البيضاء فيتراقص شعرُها العابث القصير.

تُغني: «كي كي يا كي كي كو.. يا كي كي كي كو..»

بشروعها في الغناء، انكتمَت كل الأصوات، حلَّ السكون التام، ما عاد للصراخ صدى يتردَّد، ولا للدعاء المحموم والمفجوع أثر باقٍ، ولم يعُد مرأى التساقُط والتدحرُج والتمخُّض مخيفًا؛ جميعها مشاهد هزلية صامتة، تواكِب غناءها الغنِج، كأنها رقصة سمير غانم المصاحبة لغنائها، حين مثَّلا معًا «أميرة حبي أنا»، كي كي يا كي كي كو.. يا كي كي كي كو.. صار يضحك بصخَبٍ كلما رأى شخصًا ينبطح في جدار المركب، أو يركل زميله ليرقى نحو قمة الجزيرة العائمة، أو يُفلِت الحافة أخيرًا وقد تداعَت مقاومته.

اهتزَّ المركب بشدة، كاد ينقلِب إلى الجهة المقابلة، وبدا من منظر المتعلِّقين به أن حُمَّة الدعاء والبكاء قد بلغَت ذروتها. أما هو، فقد استمر غيرِ قادر على الحركة، كأنما تخشَّب جسدُه في وضع التشبُّث، فيما قامَت هي واقفةً فوق بطن المركب المتأرجح، وأخذَت تُوازِن نفسها بذراعَيها النحيلتَين، وتخلع ملابسها قطعةً وراء قطعة.

بدَت بلباس البحر مثيرةً فوق الاحتمال؛ لباس أسوَد يلاصق جسدها المنحوت كأبدع ما تكون أجساد النساء، مُفرَّغٌ من الجانبَين، يكشِف خصرها الرهيف كرقبة زجاجة. شرعَت تخطُر بمياسة أمامه، تقفز فوق السطح الزلق الأشبه بقُبَّة، وتميل بجذعها فوق الحافة هنا وهناك، تُلامس رؤوس الهالكين، تغرِف من ماء البحر وترشرش الرذاذ فوق جثثهم المتعلّقة، بينما تقول: «خمسة في عين الحسود.. حصوة في عين

اللي ما يصلي على النبي..»، ثم إذا بها تقفز قفزةَ مباغتة لجوف الماء، كأنها سمكة دولفين تلتمع تحت أشعة الشمس، وتعوم دورةً كاملةً حول المركب المقلوب، تنتهي عند الموضع الذي ظل يتشبَّث به في حافة المركب. تعلَّقَت فوق كتفه بإحدى ذراعَيها، وبالأخرى راحَت تعتصر خصلات شعرها المغمور بالماء، فيما صدرُها البديع يعلو ويهبط بنهَج طفوليّ.

«مياه البحر حلوة،» قالت بدلالها الآسر.

فقال بوهن: «سنعوم معًا حتى نصل لشاطئ إيطاليا.. يمكنني هناك أن أرسم الناس في الميادين، وأكسب الكثير من المال».

أغمض عينَيه بشدَّة، محاولًا التخلُّص من لهيب الماء المالح، ثم أردف يقول: «سأبدأ برسمكِ أنتِ بالطبع، ستكون صورتكِ سببًا في تهافت الناس على لوحاتي».

أومأَت بتأسُّف، وقالت: «كُفَّ عن خيالكَ الواسع يا كي كي كو.. لست إلا نقّاش، والأغلب أنك ستفشل في الرسم كما فشلتَ في النقاشة، لكنكَ قطعًا ستُفلِح في الحب، وفي الموت.. ستموت بسلام بين ذراعي، ثم تلحق بي هناك على الناحية الأخرى، في الفردوس، حيث النعيم الدائم».

«نفسي أن أعيش معكِ..»

«سنعيش معًا بالطبع، كما فعلنا دومًا، لكن ليس هنا، هناك.. في الجهة المقابِلة من العالم».

«ألا ترغبين أن أرسمكِ؟»

«وما الحاجة لذلك؟ لقد رُسمتُ مرارًا من قبل حتى مللتُ الأعين المتعلِّقة بي، ومن أناس يفوقونكَ كثيرًا.. ألا تذكر؟ رسمني يحيى شاهين في «شيء من العذاب»، وعزت العلايلي في «الاختيار».. حتى المجنون محيي إسماعيل رسمني في «بئر الحرمان»، يبدو أنك نسيت يا كي كي كو».

«لم أنسَ طبعًا، لكني سأرسمكِ بحب صادق، ليس تمثيلًا كهؤلاء. ستبدين أجمل بكثير معي من أي صورة رُسِمَت لكِ من قبل، بل من أي صورة على الإطلاق، من أي امرأة في الدنيا.. من الحياة نفسها!».

أغمضَت عينَيها وضحكَت بحبور، وقالت بين شهقات الضحك: «ليس أمامكَ الكثير من الوقت. لن تكمل الطريق إلى شاطئ إيطاليا. ولكي أختصر عليكَ طريق الوهم؛ لن تُرسل النقود لأمك، ولا ستشتري جهاز أختك.. دعكَ من أوهامك هذه وفُز بقبلةٍ أخيرة، وحاول أن تحتفظ بطَعمها حتى يحين اللقاء.. هناك، على الجهة الأخرى. رفقاؤك يضيِّعون الوقت القليل المتبقّي في الصراخ، وأنت في الجدال».

طأطأ رأسه واستجاب ليدَيها الملساوَين، بينما تحتضنان رأسه وتُريحانه فوق وسادةِ صدرها المبتل، ثم أخذَت تمشِّط بأناملها الرقيقة خصلات شعره الملبَّدةَ، فيما ظل الماء يعلو، ويغمر جسده ببطء.

أغمض عينَيه أخيرًا، إذ غمره الصمت الـمُريح؛ صمتٌ لا يتخلله إلا صدى صوتها الرقيق، القادم من عمقٍ سحيق، من حيث العدم

بِس بِس بِس بِس بِس بِس

يا كي كي كي كو

بِس بِس بِس بِس بِس بِس

يا كي كي كي كو

يا كي كي كي كي كي كو.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

سجال الليل الصامت

لا.. ليس ثانيةً!

كان هذا ما خطرَ لذِهنه إذ أحسَّ مُجدَّدًا بضغط المثانة، يطرق أحشاءه كما البرق. لن يستطيع إيقاظها لمرة ثانية، فهذه المرة ستحنق بشدة، أكثر من أي مرة سابقة.. «ألا تفرغ هذه المثانة أبدًا؟»، هكذا ستقول بنبرة مُستشاطة، أو بتهكم تقول: «يبدو أن إدرار البول صار متعتكَ الوحيدة الباقية!»

هي لا تتعمَّد إهانته حين تقول مثل هذه العبارات، هكذا يؤكِّد الأولاد حين يُجالسونه في غيابها ويُطيّبون خاطره، هي أكثر طيبةً من أن تقصد الإهانة المباشرة، خاصة أمام الأولاد، لولا عصبيتها الشديدة التي تزداد شفرتُها حدة كلما تقدَّم بها العمر، وقد بلغا هو وهي من العمر أرذلَه، وأسخفَه، وأثقلَه على القلب، حين تصير تزجية الوقت أكثر ما يُنتَظر من المرء

كثيرًا ما قال لها - في سره فحسب - إنه الأولى بعصبيتها الشديدة هذه، لكونه مريضًا بالسكر منذ ما يربو عن النصف قرن. لو قال ذلك على مسمَع منها، لكانت ردَّت عليه بلسانها الشبيه بمضرب الذباب، قائلةً: «الاسم أنك أنت مَن أصابهُ السكر.. أما الفعل فأني أنا من أتحمَّل القرفَ برُمَّته.. لم يأتِني من ناحيتكَ إلا القرف والصنان!»

لا، لا يمكن أن يوقظها

هكذا حسم قراره، قبل أن يميل بنصفه الأعلى الأجدر على الحركة - وإن كان نسبيًّا - نحو جانب السرير، ويشرع في مدِّ ذراعه الدقيقة المهتزة، مُحاولًا أن يطول المبولة الموضوعة أسفل السرير. كانت بعيدة عن منالِه، مدَّ ذراعه لآخر ما استطاع، فلم يلمس إلا طرف مقبضها البلاستيكي الخشن. حاول التقاط المقبض بإصبعه، لكنه تملَّص منه ذات اليمين وذات الشمال.. نهض بصدره ومدَّ رقبته، عافر للوصول سنتيمترًا إضافيًّا في اتجاه المبولة، لامس طرف المقبض بأنملتَيه، حاول إحكامَ قبضته عليه، لكنْ سرعان ما انقطع نفَسُه، وهوى عائدًا إلى المخدَّة القطنية المشبَّعة بالعرق

بعد ثالث محاولة، ساءلَ نفسه: ماذا لو استطاع أن يُمسِك المبولة، وتمكَّن من تخطّي باقي العقبات، مثل فكِّ زر سرواله، وإدخال عضوه في فم المبولة ذي الحافة المشرشرة، ثم يفرغ حصرته بداخلها ويجاهد حتى يُعيدها إلى الأرض، دون أن يسكب منها أي شيء، فماذا يكون منها فيما بعد؟.. لا بد أنها ستقوم بتوبيخه بأكثر الألفاظ فظاظة حين تصحو من النوم، وتشمُّ نتن البول الذي صار يُفعِم هواء الغرفة سيئة التهوية. بل من الجائز ألا تتوقَّف عند هذا الحد، فتمرُّ على بناتها وأبنائها وأخواتها بالمكالمات الهاتفية، لتشكو إليهم ما كان منه، وما تُعانيه طوال الوقت من قرَفه ولا مبالاته، وبدورهم سيُواسونها في بؤسها ويظنون به الظنون. كما قد يصل طشاش الكلمات لآذان أحفاده، فيقرفون منه هم كذلك، ويتمادون في التمنُّع عن تقبيله حين يزورونه في المناسبات. الأدهى من كل ذلك، أنها قد تعود لحديثها الجارح عن

ضرورة ارتدائه الحفاضات، وتَحدِّث أبناءها بحتميَّة استئجار ممرضٍ مقيم، يبدِّل لأبيهم حفاضاته حين يبلّ نفسه

لا، لا يريد التعرُّض لمثل هذا بسبب بولة تافهة. يمكنه أن يتصبَّر قليلًا حتى تذهب الحصرة من تلقاء نفسها.

تعجَّب لحاله، وحالها، ماذا تريد منه هذه الشرسة؟! توجِب عليه ألا يوقظها حالما تروح في النوم، أيًّا ما كان خطبُه، كما عليه ألا يُقلِق نومها الخفيف بخرير بوله المقزِّز، وعليه كذلك ألا يُفسد لها هواء الغرفة العطنة في الأساس.. كل هذه الأمور تُثيرها لدرجة الجنون. ماذا عساه أن يفعل إذًا؟ هل عليه أن يحتجز البول في زاوية أخرى غير المثانة الملتهبة؟!

تبًّا لكِ امرأةً مُتطلِّبة بلا قلب!

لا زالت المبولة بعيدةً أسفل السرير. لو حاول معها ثانيةً سيُصيبه الشد العضلي المميت، الذي داهمه قبل أيام حين أراد أن يحُكَّ ظَهره، ولم تُفلِح قربةُ المياه الساخنة في معالجته. يا رب.. الألم يضغط في باطن عانَته، كأنه نَصلُ خنجر. ربما يفتر لبرهة، لكنه يُعاود الضغط عليه بعدها بعنفٍ أشد. كيف الخلاص إذًا من هذه الحُرقة المميتة؟!

لا بد من إيقاظها؛ لا مهرب آخر من هذا العذاب.

استدار نحوها. وضع كفَّه عليها بأقصى خفَّة ممكنة، تردَّد لبرهة، قبل أن يشرع في هزِّها بلطف بالغ، ثم بارتباك، وأخيرًا بشدة أكبر قليلًا، وبجزع تام

ليس ثمة استجابةٌ لهزّاته المتفاوتة، تساءل: متى استحال جسمُها لهيكل عظمي يابس على هذا النحو؟!، مع أن شهيتها للطعام تفوق شهيتَه معظم الوقت. قد يكون لكثرة ما تتحرَّك في جنبات البيت؛ أما هو فراقدٌ طوال اليوم، كأنه كسيح.

عاد يهزُّها من جديد، بجسارة هذه المرة، البول يضغط مثانته، وضغط المثانة يُوتِّر أعصابه ويُشنِّج أطرافه، يدفعه نحو المزيد من التسرُّع، من المخاطرة بكل اعتبار، والاستهانة بالتبِعات.. ناداها بصوت خافت، عاود مناداتها، رفع صوتَه في المرة الثالثة، هزَّها بعُنف، صاح فيها مُناديًا بحُرقة لاهِبة

لا فائدة فيكِ!

«هل مِتِّ؟»، سألها فيما يتحسَّس أنفاسَها. لامَس شعيرات شاربها النابتة، لاحَظ كيف استطالَت وييبِست على نحو غريب، لم تعُد تهتم بنفسها منذ أعوام.

عاد لهزِّها والصراخ فيها وقد ضيَّق اليأس خناقَه عليه. ارتجفَت ذراعاه على نحو ضاعف اضطرابه، صار العظم يصطك ببعضه فيُصدِر صوتًا غريبًا، لا يُعقَل أن يكون حقيقيًّا. صدرُها المفلطح راكد تمامًا؛ لا يعلو، لا يهبط، لا يمنح الأمل في أدنى استجابة. ما العمل الآن؟ هل يهاتف جارَه عبد السلام؟ ليس الوقت مناسبًا للاتصال.. عبد السلام! لقد مات الرجل قبل نحو أسبوعين، كيف نسي موت جاره عبد السلام؟! هل لأنه لم يحضر جنازته؟ إذًا عليه أن يتَّصل بابنته دعاء. البنت على مسافة عشر

دقائق مشيًا على القدمين، لكن.. هل ينفع أن يجعلها تذرع الشوارع في أنصاف الليالي؟ وهل بإمكانه الإمساك بنفسه حتى تجيء الفتاة؟ أم يعملها على نفسه؟! ماذا عن المرأة الميتة؟ هو حزينٌ لفراقها ما في ذلك شك، لكنَّ البول يضغط مثانته فوق الاحتمال، يكاد يُفجِّرها، ويُسمِّم بدنه بمخزونها الحارق، يكاد يقتله هذا النصل المغروز في عمق عانَته.. الحرقة تشتِّت أفكاره، تُغيِّم مشاعره، فتجعل الإمساك بها مستحيلًا الآن، كل شيء يُفلِت من يديه حتى المنطق السديد، الذي لطالما اشتُهِر به.

هل ماتت بالفعل! هل مِتِّ؟، سألها.. ماذا لو كانت ماتَت بحق، كيف يتصرَّف غدًا؟ بل كيف يتصرَّف بعد ساعة أو ساعتين، حين يُعاوده الحصر من جديد؟

ماذا عن الآن؟! كيف يشيل همَّ المستقبل ويتناسى الآن؟ أي منطق!

تقلَّص تمامًا جلدُ وجهه، كأنه غسيلٌ معصور، تبلَّلَت مقلتاه، طفرت الدموع من جانب عينيه وسالَت حتى أرنبة أنفه. إنه حزين جدًّا، منقبض الصدر، غاصُّ الحلق باحتقانٍ خانقٍ يكبح تنفُّسَه، والحصر يشُقُّ جسمه من الوسط، كأنه حدُّ السيف

إنه خائف جدًّا، خائف مما هو عليه الآن، ومما يمكن أن يحدث له بعد ساعة أو ساعتين. لا يليق أن تجده ابنته على هذه الحال الشائنة حين تمرُّ في الصباح. لا يليق أن تودِّع أمَّها على سريرٍ تفوح منه رائحة الصنان. يجب عليه أن يتماسك بعض الشيء، أن يكون على قدر الموقف المهيب، أن يحفظ كرامته وكرامة زوجتِه، أن يحتفظ باحترام أولاده، أهم شيء الأولاد، وأيضًا الأحفاد، لو ظلَّ ممكنًا الاحتفاظ باحترامهم

لكن كيف؟ البول ضاغط؛ البول حارق؛ دافئ.. مريح.

انتهى الأمر. تلاشى الانقباض القاتل، كأن لم يكن. تفكَّكَت أوصال جسده واسترخَت عضلات بطنه، تهاوى جفناه، ارتخَت أطرافه المتيبسة، وعاد لعظامه صوتُها الطبيعي. ليس البلل شعورًا سيئًا لهذه الدرجة التي كانت تُفزعه. بل إنه شعور مريح، دافئ، يُهدهِد نصفه الأسفل ويُلطِّف جِلدَه، يُعيده لحالة الطفولة اللا مبالية، حيث لا يحمل المرء همًّا ولا يحسب حسابًا لأي شيء. شعورٌ يمنح الخَدَر الذي يتوق إليه، يُثقِل جفنَيه بالرغبة في النوم.

ليس عليه الآن إلا أن يُرجئ التفكير في كل شيء، حتى الصباح، هكذا أكَّد لنفسه قبل أن يستدير ببطء ويضطجع على جانبه، ويحتضن الجسد البارد الأصمّ، الساجي بجواره لا يستشعر أدنى عناء.. كل ما عليه فعله الآن، هو أن يُغمض عينيه، ويُذعِن فقط لسلطان النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كفان وأربعة أصابع

كانت أطيب جيراننا على الإطلاق، لدرجة أنك تشعر بالبهجة لمجرد رؤيتها؛ لولا كفّاها المفزعتان!

كنت ألعب الاستغماية مع صِبية البناية ذات يوم، في المدخل الواسع الذي نحفظ أبعاده عن ظهر قلب، فنتحرَّك فيه مُرتدِين الغمامات، مُعتمِدين على أصداء صيحاتنا وتردُّدها على الجدران، لذلك كنا نُثير جلبةً لا تُحتمَل، فيتوعَّدنا حارس البناية العجوز بالشكوى لأهل كل منا، لو استمرَّينا في دفع البوابة وإزعاج السكان. وكنا ندرك تمامًا أن قضيته بعيدة كل البعد عن إزعاج السكان، لكنها تكمن في الشوشرة عليه أثناء مشاهدته مسلسل التلفزيون المسائي. والحقيقة أنه لم يكن يُشاهد المسلسل على النحو المتعارَف عليه عند أكثر الناس، بل كان فقط يُرهف السمع لأصوات الممثلين، فقد كانت عيناه مُغشَّاتين بطبقة من المياه البيضاء، وكنت أستغرب أذنه المرهفة التي قاومَت الزمن بمفردها دونًا عن سائر الحواس، لكنني أرجعتُ السبب إلى امتهانه التنصُّت على السكان طوال حياته، وكانت أمي تُحذِّرنا أنا وأختي من استمرارنا في الجدال معًا فيما نعبر مدخل البناية، أو حين ينتظر الحارس العجوز عند باب الشقة، لذلك لم أكن أتعاطف معه حين يسخر منه أحد الصبية بفظاظة غير مقبولة، فيقول: «وهل ترى شيئًا من الأساس؟»، فيسخط العجوز المسكين قائلًا: «لهذا دعوني أسمع على الأقل!»

كان الدور على حسام في لعبة الاستغماية، فوضع العصابة على عينَيه كيفما اتفق، وشرع يعُدُّ من واحد إلى عشرة، مسرِّعًا إيقاع العَدِّ في الثلاثة الأرقام الأخيرة؛ ثمانية، تسعة، عشرة.. ليُباغِتنا بالانقضاض علينا فيما لا نزال غير مستعدّين. ركضتُ بجسدي المكتنز نحو الأُمَّة، أحاول الإفلات من يد حسام التي أوشكَت على اصطيادي؛ كنت أخشى لحاقه بي، فعادةً ما يُمسك جَنبيَّ المنتفخَين ويلطم ردفيَّ المتكوِّرين، ويُعايرني بسمنتي. تآمَر معه صبي آخر قبل بلوغي الأُمَّة بسنتيمترات، ودفع ضلفة البوابة الحديدية دفعةً هيِّنة، لكنها كافيةٌ لتجعل البوابة تُعيق طريقي، فإذا بي أهوي كجوال قطنٍ ثقيل صوب البوابة، فتنغرز حافتها في لحم ركبتي، وتلعق منه الدماء.

تسطَّحتُ أمام سيقان الصِّبية، وسمِعتُ ضحكاتٍ تتفلَّتُ منهم رغم محاولتهم زمَّ أفواههم عن الضحك. فيما هُرِع الحارس العجوز نحوي إثر سماعه صرختي المدوِّية، وحتى لا أمنحهُ فرصةَ التشفِّي بنا، وبرغم حنقي الشديد على الصِّبية العدوانيّين، رفضتُ يدَه الممدودة إليّ، وتركتُهم يسنِّدونني صعودًا على سلم البناية، حتى باب شقَّتها في الطابق الرابع.

أكثر ما يتعلَّق بذهني من ملامح وجهها المريح، هما عيناها النجلاوان، فقد كانا في سواد بِليةٍ زجاجية ربحتُها ذات يوم، وصرتُ حريصًا ألا أغامر بفقدها في المسابقات. يلي عينَيها شعرُها الأسود الداكن المسرَّح على الدوام، الذي يُشبه الشعر المُستعار، ويؤطِّر وجهها الأملس ذا البسمة الأزليّة. أطلَّ هذا الوجه اللطيف حين واربَت لنا البابَ وبرز رأسُها الصغير، فانسدل شعرُها كما ستارة من خيط حريري

أسود، فإذا بأربع رؤوس صامتة ترتصُّ أمامها، ولا يزال ضجيج لعبها يتردّد من جدران السلم، فيعوق تركيزها في المذاكرة.

كانت طالبة في الفرقة الثالثة في كلية الطب، لكنها كانت طبيبة البناية باتفاق الجميع، رغم وجود أبيها الأستاذ في القصر العيني وأخيها الطبيب الممارس. بنظرةٍ واحدة قرأت المشهد، ومن درجة الصمت عرفَت أن إصابتي بالغة، ففتحَت باب الشقة على اتساعه وخطَت بخفّة نحونا. توقَّفَت قبالتي، وجلسَت القرفصاء في قلب دائرة الصِّبية التي أخذَت تضيق ببطء. بدأت تتفحص الجرح الغائر بأنامل طرية وبضَّة، تُدغدغني أكثر مما تؤلمني، بينما أرنو بخجل لوجوه الصِّبية الملاعين، وقد جرى ريقهم على المشهد الماثل أمامهم وتمنوا لو يُصابون كل يوم، فتُلامسهم هذه الأنامل الملساء، وأخذوا يتفحَّصون قميصَها القطني من كل زاوية ممكنة، مُتقلقلين في أماكنهم كل حين.

كانت زاويتي الأقرب إليها، والتي تتسلَّط من أعلى مباشرةً على جذعها الملفوف في القميص القطني، وقد التصق به القماش الأبيض الشفيف ذو الورود الصغيرة المتناثرة، راسمًا حدود سروالها الداخلي المثير، ولا يكاد يتجاوز محيط ركبتَيها المستديرتَين، فيما ينسدل أعلاه بطراوةٍ أسفل رقبتها، فيبرز الوهاد والهضاب المنحوتة من الزُّبد في منطقة الكتف. ولم يصرِفني ألم الجرح عن تفقُّد المساحة الثلجية الرطبة، التي كان القميص ينحسر عنها كلما باعدَت بين ذراعَيها أثناء الكشف، تلك المساحة أسفل إبطَيها، التي تناثر عليها عشبٌ أسود قصير لا يكاد يبين من مسام جلدها الأملس، لكنه رغم ذلك استدعى أكثر أحلامي جموحًا، خاصةً وقد كشفَت أيضًا فتحةُ الإبط عن حمالة صدر سمنية اللون، ظهر منها ملليمترات قليلة، لكنها كانت كافيةً تمامًا لإضرام النيران بدواخلنا.

فيما بعد، عدَدنا هذا المشهد أكبر انتصارٍ لنا خلال تلك الفترة المشتعلة بالشهوة، خاصة وأنه كان الظهور الأول لركبتَيها اللامعتَين كالخبز المدهون؛ انتصارًا غيرَ مسبوق، كنتُ أنا صاحبَ الفضل فيه، ما دفع بي لمرتبة جديدة بين أصحابي لا يجوز معها تعمُّد الإيقاع بي أو السخرية مني، وظلَّت الدكتورة تُعزِّز مكانتي فيما بعد، بابتسامة ناعمة أو إيماءة لطيفة كلما تصادف مرورها عبر مدخل البناية أثناء لعبنا. لكنْ ما خبِرتُه وحدي دونًا عن سائر الصبيان، كان رائحتها. فمع اقترابها مني لدرجة تُشارف الالتصاق، تسلَّلَت لأنفي رائحةُ مسحوق الغسيل، تلك التي أدمنتُها فيما بعد، وصرتُ أرافق أمي كلما ذهبَت تنشر الملابس؛ أُناولها الغسيل قطعةً وراء قطعة، وأملأ صدري في كل مرة من عبير المسحوق الشهي.

وفي غمرَة تلذُّذي بكل شعور ينتابني بسببها، إذا بها تُشهِر أمام عينيَّ كفَّها المُفزعة، وتشرع في تحسُّس جرحي بإصبعَيها الوحيدَين. سرَت بداخلي رعدةٌ خفية، فيما كنت أراقب منابت الأصابع غير الموجودة، حيث كان مفترضًا وجود سبابة، وخنصر، وبنصر، رشيقة مشذّبة، مطليّة الأظافر بأحمر قانٍ، مثلها مثل إبهامها ووُسطاها الموجودَين! لا بد أن تكون قد لاحظَت قشعريرتي، لذلك سحبَت إصبعَيها من أمامي وطوَتهما في باطن كفها الرهيفة اللامعة، ثم نهضَت وغابَت بداخل شقتها.

تبادل الصِّبية نظرات متوجسة، ولم ينبس أيٌّ منا بكلمة حتى عادت. كانت قد وضعَت فوق قميصِها روبًا خفيفًا أخضر اللون؛ سحبَتني بإصبعَيها من يدي الباردة، وأجلسَتني فوق درجات السلم الصاعد حتى السطح. قرفصَت بجانبي، وأخذَت تمسح الجرح بقطنة مُبلَّلة بسائل في لون الصَّدأ، ثم غمسَت قطنة تنظيف الأذن في قارورة بلاستيكية، فاصطبغَت ذؤابتُها باللون البُني، وشرعَت تصبغ جرحي والمساحة المُحيطة به بالسائل الغامق، قبل أن تُغطّيه بقطنة بيضاء وتلفَّه بشاشٍ أبيض شفيف. كل ذلك قامَت به بأربعة أصابع فقط؛ إصبعَين في كل كف

حاولتُ ألا أتابع أصابعها حتى تذهب عني الرعدةُ المخجِلة، لكن الرغبة في مراقبتها ظلت تغلِبني، تُربِكني. مدَّت نحوي ذراعَها ودَعتني للتسنُّد عليه حتى أنهض، ومنحَتني ابتسامةً لم أرَ يومًا أشهى منها؛ أشهى من جميع ابتساماتها التي منحَتنيها فيما بعد. أخيرًا قالت لي: «سلامتك»، ثم لملمَت أغراضها ودلفَت لداخل شقتها في الطابق الرابع، وتركَت باب الشقة مواربًا، احترامًا لوجودنا. نظرتُ لرفقائي أستفسر عن خطوتنا التالية، فإذا بهم يسبقونني نزولًا على السلم، ويتهامسون فيما بينهم: «شُفت؟».. «آه شُفت، وأنت؟».. «شُفت!»

عُدنا لمدخل البناية، واقترب الحارس العجوز يطمئن عليَّ: «سلامتك يا رامي»، «الله يسلمك يابو سيِّد»، وجدتُني أستقبل منه الودَّ بروحٍ خفيفة، مُتسامحة، بل وأقبل المقعد مكسور الظهر الذي وضعه لي كي أستريح عليه، ومن بعدها صِرتُ أشدَّ مُناصِريه؛ أطالب الصِّبية بخفض أصواتهم، فيستجيبون أحيانًا. وظلَّ المشهد الذي شهِدناه في الطابق الرابع موضع اهتمامنا لأسابيع؛ نستعيد تفاصيله، ونراجِع المشاعر المصاحِبة لكل تفصيلة منها، نُبالغ قليلًا كي يبقى الشغف حيًّا أطول وقتٍ ممكن.

أما بالنسبة إليّ، فقد ظلت كفُّها تزور أحلامي وتشغل هواجسي، أيامًا امتدَّت لأسابيع، وأسابيع افترشَت سنوات، حتى صارت كفُّها اللامعة ذات الأصابع الأربعة الرشيقة، المطلية بأحمر قانٍ، هي تجسيد الأنوثة الوحيد الذي يرتضيه خيالي، أبحث عنه في كل امرأة ألتقيها، أتناول كفَّيها على طريقة المشاهد الرومانسية المعتادة، فيما هاجسٌ يساورني بأن أتأمل أصابعها، أتخيَّل بعض منابتها وقد التحمَ فيها الجلدُ الرقيق على اللا شيء، بحيث لا يمتد من كل كفٍّ إلا إصبعان فقط؛ إصبعان رشيقان لامعان، مُدغدِغان، مطليّان بأحمر قانٍ. أما كانت لتُثير اشتهائي فوق ذلك بكثير

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفحة بيضاء

بلا اسمٍ ستمضي، بدءًا من اليوم

باغتتني الصوت، كأنه قرعُ جرس. أيقظني كأنما لأُخلَق من جديد. كان صوتًا باطنيًّا ربما، غير أنه أشدُّ وَقعًا من أصوات العالم.

لم أحفَل باسمي يومًا، لطالما استثقلتُه، حاولتُ لَصقَ أسامٍ أخرى بوجهي المعكوس في المرآة ولم أفلِح، شيءٌ ما ظل يُساورني أن لن يلتصِق بهذا الوجه اسمٌ آخر، أهملتُ الفكرة ومضَيتُ حاملًا مشيئة أبويّ.

كمَنَت الفكرة بداخلي حتى صرتُ لا أُدرِك وجودَها، نمَت لها أطرافٌ ثابتة وغشاءٌ حام، وحين فاجأتني كانت أكثر تماسُكًا وقدرةً على اقتحامي.. لماذا يُفرَض على البشَر حَملُ أسماء لا يختارونها؟ ماذا لو عِشنا كسائر الخليقة، بلا أسماء، نعرف بعضنا كما يعرف الراعي أغنامه والزارع نخلاته، كما تعرف الحبلى جنينها قبل أن تهبه اسمًا يُثقِل كاهله، يصير بديلًا عنه في الأوراق الرسمية وفوق شاهد القبر.

لن أكون مِتولّي بدءًا من الآن، ولا ياسر ولا محمود، لا هيثم لا أكرم لا جمال.. أنا أنا، فقط، وحين أموت سأوصي بتَرك شاهد القبر خاليًا من أي اسم، صفحة رخامية بيضاء غير موسومة بذلك الوشم الأزليّ.

حدَّثتُ نفسي أن لا بد من محو الوشم، لن أُجيبَ أحدًا يدعوني بتلك الكلمة التي التصقَت بوجهي رغمًا عني.. حدثتُ زوجتي:

«من اليوم، لا تُناديني مِتولّي».

«هكذا أُناديكَ بين الناس، أما فيما بيننا فأقول ميتو».

«لا ميتو ولا مِتولّي، ولا أي شيء آخر».

«إذًا، ماذا أقول؟!»

«لا شيء».

كنتُ حاسمًا في طرح الفكرة، عازمًا على التنفيذ مهما عانَدَت، لكنها عادَت تستفزني فيما نشرب الشاي: «لا أستطيع التأقلُم مع عدم وجود اسم أُناديكَ به».

«أمرٌ مؤسف، حيث لم يعُد لي اسمٌ تُناديننني به».

«أحتاج وقتًا لاعتياد الوضع الجديد».

«لكِ ما تشائين، لكني لن أُجيبكِ لو ناديتِني كما في السابق».

«إذًا، سأُناديكَ بأي اسمٍ يخطر لي».

«لن أردّ».

«براحتك».

منحَني التمرُّد حماسة طازجة، وصلابة كنتَ أحسبُها ذكرى بائدة. أما هي، فاستجابَت لصلابتي كما لم تفعل من قبل؛ غُنج فوّار، بَوح سافر لا حِشمة فيه. وفي أَوج انصهارها قالت: «كفاية يا حسن، تعِبت».

«حسن! حسن مَن؟!»

«أنت».

«قلتُ إني بلا اسم..»

«لا بدّ من اسم أشتهيه، أنت الآن حسن.. غدًا خالد».

كرهتُها.. أمعَنتُ في كراهة الأسماء. كانت عبئًا، فصارَت خصمًا عليّ التسلُّح في مواجهته، وصِرتُ مُضطرًّا لحمل السلاح مهما ثقُل عليّ؛ اسم جديد كل ليلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خزانة المائة نفس

مكث ليومَين كاملَين يبحث في كل مكان يخطر لذهنه؛ تفقَّد جميع الدواليب، قلَّب أدراج ودُرف التسريحة ونكَتَ ما بداخلها، فتَّش أدراج المطبخ، دسَّ يده في جيوب البِدَل، قلَبَ جميع البناطيل وأخرج أحشاء السُّترات، أفرغ خزانة الجِزم على الأرض ونفَّض الأحذية القديمة.. كاد في ذروة اليأس أن ينكسر، أن تخورَ عزيمتُه، غير أن الغضب كان أشد، فاستمرَّ يدفع به لتكرار البحث حتى شارَف حافَّة الجنون.

اندفع يذرع البيت رواحًا وجيئة بملابسه التحتية، كان متعرِّقًا بشدة، مُهوَّش الشعر، لا عقلانيًّا أبدًا، حتى إنه كسَّر عددًا من بلاطات أرضية الحمام، بدَت له في غمرة اليأس والغضب مُتقَلقِلة، أزاحها من مكانها وفتَّش الرمل المشبَّع بالرطوبة أسفل منها. لم يجد شيئًا بالطبع، فانهار خائر القوى، وارتمى فوق كِسارات البلاط والرمل المتناثر، خلع فانلته الداخلية، وأخذ يُجفِّف بها عرقَه الغزير، فيتفصَّد المزيد.

غام ذهنه بسؤالٍ وحيد لا ثاني له: أين المفتاح؟!

كلما استجمع تركيزه أذابَه العرق الغزير، بدَّده الملح المترسّب فوق سطح الجِلد. ليومين مُتواصلَين يُفتِّش عن المفتاح في جميع المخابئ المحتملة، امَّحَت ذكراه كأن لم تكن، والباب الـمُصفَّح عنيد، لا يرضى بالتفاوض أو الحلول الوسط، إما أن يولِج المفتاح بداخل الكالون، أو يظل حبيسًا خارج الخزانة.

منذ يومَين أو يزيد، لم يعبر لداخل خزانة الملابس؛ لم يُطعِم أولئك الـمُعلَّقين بداخلها وجبةً جافَّة واحدة، كالتي يدسُّها عنوةً في أفواههم في اليوم مرتين، لم يسقِهم شَربة ماء. مكث يتخيَّل هيئتهم البائسة من أثر الصيام؛ يتدلّون من شماعات الدواليب كالشياه الذبيحة، وقد ضمرَت أجسادهم كالملابس المغسولة. انتابَهُ الأسى العميق، ليس لتعاطفه معهم بالطبع، بل لشعوره بالمسؤولية تجاههم، تجاه إطعامهم وسقايتهم والعناية بهم، وتبديلهم كما يفعل كل مساء؛ يُنزِل الـمُعلَّقين فوق الشماعات، يطويهم بعناية، قد يُسوّي أطرافهم بمكواة البخار، ثم يرصُّهم فوق الأرفف السفلية، ويُعلِّق مكانهم أولئك الذين أمضوا يومًا مطويّين أسفل الخزانات.

ذهب للنوم أول أمس، شاعرًا بكدَر شديد الوطأة، فقد كان يرغب بشدة في اصطحاب سلمى معه إلى الفراش، في هذه الليلة على وجه التحديد. وكان قد قضى ساعةً في الحمام يغمر جسمه في المياه الدافئة، تحت طبقةٍ كثيفة من الرغوة الفواحة بالعطر، يُدلِّك أطرافه على مهل، ويتأكَّد من تفتُّح مسامه لاستقبال كل رعشة مثيرة من جسد سلمى، قبل أن يرتدي البُرنُس القصير ويمشي حافيًا حتى خزانة الملابس. هنالك وقف يُطالِع الباب الـمُصفَّح، وسيماء الحيرة تُغلِّف ملامحه، فلم يكن يذكر أين خبَّأ المفتاح.. عادةً ما يُغيِّر مكانه كل بضعة أيام، حِفاظًا على سريَّة الخزانة، يبتكر كل مرة مخبأً جديدًا لا يخطر على بال مخلوق، ويزداد غبطةً كلما كان المخبأ عصِيًّا على التوقُّع، ولم يحدث قط أن نسي المكان الذي خبَّأ فيه المفتاح آخر مرة، فما هذه الأرواح المعلّقة أو المطوية بداخل الخزانة إلا جزَيئات من روحه هو، بغيرها لا يكون لحياته نفس الطعم الذي يُدمنه. ولذلك لم يفتر للحظة عن البحث، لم يترك

يومها مكانًا إلا وفتَش فيه، حتى غلبه النعاس الشديد، فاقتعد على الأرض بجوار باب الخزانة، ونام مُسنِدًا ظهره لسطحه البارد.

حين أفاق من نومه، كان الألم يرتع في منتصف ظهره صعودًا هبوطًا، فلم يكن قد نام قط في مثل هذا الوضع البائس.. قال في نفسِه: «ليس خسارة فيكِ يا سلمى»، ثم نهض سريعًا وأنهى بلَهوجةٍ حمامَه الصباحي، ثم شرع يبحث من جديد على امتداد اليوم، حتى الجوع والعطش لم يُثبِّطا عزيمته، فكان يصنع الشاي فيما يعبث في أدراج المطبخ، ثم يفتح رغيف خبز ويحشوه بأي شيء تقع عليه يده بداخل الثلاجة، ويعاود البحث دون فتور. لكنه انهار من فرط التعب مع انسحاب آخر ضوء، فنام في مكانه حيث جلس ليستريح قبل قليل، على المقعد الهزاز في غرفة المعيشة.

في اليوم التالي أعاد الكرَّة، بيأس أكبر هذه المرة، بتوتُّر أشد. سيموت المعلَّقون بالداخل لو تأخَّر عليهم أكثر من ذلك. سيموت عليوة إخصائي التدليك السمين ذو الأصابع الغليظة. ستموت إقبال مستشارته المالية وحاملة حقيبته، فضلًا عن كونها حافظة أسراره. ستموت ألفت المختصَّة بأظافره، والتي تنتِف كذلك شُعيرات وجهه وتُقلِّم الشعر النابت من مُنخرَيه، ويلطمها حين تقترب منه أكثر مما يجب. لن يتحمَّل موت سيد، خبير المزاج ومُخطِّط السهرات، أي كارثةٍ ستواجهه لو حدث ومات سيد! ماذا لو ماتت مروة، صاحبة الرقم القياسي في تحمُّل لطماته وعصبيَّته، تلك المختصَّة بترتيب غرفته وكيِّ ملابسه؟ أو سلمى، وسادته الطرية الملساء وأحبهم جميعًا لقلبه.. هل يصبر على غيابها أطول من ذلك؟! قدماه تشكوان ليس من كثرة ما ذرَعتا أرجاء البيت، بل من طول ملامستِهما لخشونة الأرض، بعد أن اعتادتا الاتِّكاء فوق بطن سلمى وفخذَيها الملساوين.

تسع وتسعون نفسًا مُعلَّقة ومطويَّة بداخل خزاناته، كان يُخطِّط لأن يُتمَّها مائة نفس، لكنه لم يجد بعد مَن يستحق الانضمام لِباقته المنتقاة.

خارَت قواه تمامًا في تلك الليلة، التي أمضاها نائمًا بجوار الباب، في ذلك البرزخ الغائم بين اليقظة والنوم، حتى استفاق في الصباح على القرع المدوّي لبائع الأنابيب، فأخذ يرنو لما حوله في محاولة لاستنباط مكانه، لاستيعاب مآله.. ثم تذكَّر ما كان عليه واستعاد شعورَه بفداحة المأزق. أدرك مدى يأسِه ودُكنَة مشاعره. نهض إلى الحمام، بتثاقل وهوان وشعور فادح بالخِزي. خلع لباسه الداخلي، وقذف به في سلة الغسيل، ودلف لداخل كابينة الاستحمام لا يكاد يصلب طوله. ترك الماء الساخن ينساب من فوقه، حتى كاد ينام على نفسه، فحاول إنعاش نفسه بسَكْب الشامبو ذي النكهة الاستوائية فوق رأسه، وتركه ينداح فوق جسمه دون تدليك، ثم أعاد قارورة الشامبو لموضعها فوق الرف، فتقلقلَت القارورةُ وسقطَت على جانبها، مدَّ يده ليعدِلها فسقطَت من جديد.. دعك وجهه جيدًا حتى تلاشَت بقايا الشامبو، وشحذ تركيزه لكي يُعيد القارورة لوضعها الصحيح. تحسَّس سطح الرف المعدني أسفل منها، فاصطدمَت أصابعه بشيء يابس، مُبتلّ، مُراوِغ.. إنه المفتاح!

جفَّف المفتاح بيدَين مرتعشتَين، وخرج يتعثَّر في ارتباكه وعُريه، راسمًا برشاش الماء طريق خزانة الملابس. أولج المفتاح بأصابع مهتزَّة، أداره، ودفع الباب

بتوجُّس. اخترقت أنفه رائحة العطن. أغلق من خلفه باب الخزانة حتى يختلي بمصيبته.. مضى يفتح تباعًا درف الدواليب، ينظر للأجساد المتداعية بداخلها، فيما تتكاثف رائحة العطن مع كل خطوة، ويجثم التوتُّر أكثر فأكثر.

شرع يُحرِّك الأبدان المُعلَّقة، تلك التي رقَّت حتى استحالَت جلدًا فوق عظم، وتلك المطويَّة التي هبطَت كثيرًا عما كانت عليه حين تركَها. تبدّى الخواءُ داخل كل جثة، ليس ثمة نبض يتحسَّسه، لا دليل على وجود حياة، ليست سوى أعضاء متهدِّلة يُمسِكها جلدٌ مُكرمَش، تفوح منه رائحة العدم

ثمة درفةٌ وحيدة لم يفتحها في نهاية صفِّ الخزانات، فتحَت من تلقاء نفسها، تأرجحَت في هواء الغرفة الثقيل، المفعَم بالموت.. تقدَّم نحو الدرفة، تحمله ساقان ترتعِدان، جذبها لتفتح عن آخرها، فتهاوى جسد الشيخ، وانطرح بثقله على الأرض.

كان الشيخ بيومي يلفظ أنفاسه الأخيرة، يرمق من وضعه الجنينيّ ذلك الماثل أمامه مُمسِكًا بدرفة الدولاب، ذلك المبتَل، المخذول، الذي ارتأى مسحةَ عتاب في نظرة الشيخ الجاثم على الأرض، فأخبر الشيخ بأن لا حاجة الآن لنصائحه المكرورة، البائتة، التي لم تنفعه يومًا قبل هذه اللحظة، وكذلك لن تنفعه الآن، حدَّث نفسه بأن ليتني ما ضمَمتُ يومًا هذا البغل لمجموعتي، ولا شغلتُ به مكانًا بداخل خزانتي.

أمسك مفتاح الخزانة بقوة بين إبهامه وسبابته، وجثم فوق جثة الشيخ بيومي المقوَّسة، أدار وجه الشيخ ناحيتَه وجذب لحيته الطويلة الشعثاء، فاتحًا فاه عن آخره، ثم ألقمَه المفتاح.

تحشرجَت أنفاس الشيخ حين كاد يبتلع المفتاح، فأدخل أصبعَيه في فمه، وأخذ يدسُّ المفتاح لأبعد ما استطاع بداخل حَلْقِه، قبل أن يحشو حنكَ الشيخ بشعر لحيته.. سرعان ما تأكَّد من اختناقه، فأقعى مكانه بداخل الخزانة فوق الرف السُّفلي، وأسبل جفنَيه، واستدعى النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وليمة الحواس

لم أكَد أصدِّق أذُني يوم وافق على إجراء الحوار. وكان معروفًا باعتِداده وحِدَّته، وبعزوفه عن لقاء الصحفيين، وأنا الصحفي الشاب آنذاك، حديث العهد بالمهنة، وغير المدعوم من فلان أو علان، لذلك قرَّرتُ أن أجعل هذا أول سؤالٍ أطرحه عليه حين ألتقيه، على ألا يكون ضمن أسئلة الحوار المنشور بالطبع: «لماذا قبِلتَ طلبي إجراء حوارٍ معك؟»

وقد فاجأتني إجابته، يوم قابلتُه في المطعم الفارِه المتواري داخل أحد الفنادق المطلَّة على النيل، إذ أجابني قائلًا: «وافقتُ بسبب قمصانك الغريبة المشجَّرة هذه».

والتفَتَ مُشيرًا إلى النادل الأنيق، الذي ما إن لمحه حتى أتاه مُهرولًا وقال: «تحت أمر سعادتك يا فنان»، فأخذ يُمليه طلباته للغداء، مُتردِّدًا قليلًا في اختيار طبق الشوربة الأنسب لحالته المزاجية، ومُنحازًا لطبق من السلطة يحوي أنواعًا غريبة من الفاكهة، وصفها بأنها تجعل الطبق «شكلُه يجنّن».

ثم أومأ إليَّ حتى أُملي طلبي، فاعتذرتُ بأن هذا ليس موعد غدائي، فسخِر مني قائلًا إن موعد غداء الصحفيين يحين فور توقُّفهم عن الثرثرة، وراح يُطالع قائمة الطعام من جديد، وقال: «دعني أختار لك شيئًا تفهمه»، وأخبر النادل بالطبق المطلوب، مُوجِّهًا بأن يُقطَّع اللحمُ لقِطعٍ صغيرة قبل تقديمه، ثم شرح لي السبب: «حتى لا تلخم نفسَك بالتقطيع».

لو حدث ذلك من شخصٍ غيره، لكنتُ شعرتُ بإحراج فظيع ولسعيتُ لإنهاء المقابَلة، لكنني أحسستُ بارتياح كبير في رفقته، واعتزاز لكوني أجالس نجمًا لامعًا مثله.

بدا أسمن قليلًا من ذي قبل، بوجهٍ متورِّد وصافٍ تمامًا، ربما بفعل النبيذ الفاخر الذي كان يعبُّ منه كل حين؛ يسكبه بمقدار، ثم يرفع الكأس ويشتمُّها حتى يملأ صدره من عبقها الكحوليّ، ثم يدلُقها دفعةً واحدة في جوفه مباشرةً، ويترك النبيذ يتخلل خلاياه ويُحدِث أثره.

سألتُه: «ما بال قمصاني المشجَّرة؟ وكيف صارت تأشيرة دخولي لعالمك؟»

فضحِك بصوتٍ عالٍ وناعم معًا، وقال: «قمصانكَ الرخيصة العجيبة هذه، تبوح بأنك لا تحفَل بالمظاهر، وهَذا تحديدًا ما أبحث عنه فيمن أُقرِّبهم مني. لقد سئمتُ الناس بالفعل».

بدأَت الأطباق تهبط تباعًا على المائدة؛ أطباق بديعة التكوين، كأنها واردةٌ للتو من مطبخ الجنة، تفتح الشهية على مصراعَيها وتُسيِّل اللعاب.

«كُل.. لا تتكسِف»، قال فيما يفرد منديل المائدة فوق حِجره، «دَعْكَ من السكين؛ لستَ بحاجة إليه، لا أحد يُراقبك»، ثم أكمل يقول: «لو راقبكَ أحدٌ لاستحوذ القميص على جُل انتباهه!»، وشرع يضحك ويلتقط بطرف الشوكة قطع الفاكهة التي تُزيِّن طبق السلطة.

أخذ يجاوب أسئلتي بأريحية تامة، ويضرب أمثلة يُثبِت بها آراءه المدهشة؛ أحيانًا يُعرِّج على بعض الفضائح والمواقف التي خبرَها بنفسه، مؤكِّدًا على أنها «ليست للنشر»، وكنتُ أحترم ذلك طبعًا، فأوقِف التسجيل وأضع القلم حتى يسمح لي بإعادة تشغيله. لذا كان يختم كلامه مع كل موقف قائلًا: «أنا واثق فيك، لهذا سأُخبركَ بالمزيد»، وهكذا يفعل.

الغريب أنه لم يتذمَّر من كثرة أسئلتي، بل صار يُضيف المزيد من عنده، فيقول مثلًا: «لم تسألني عن السبب في كيت وكيت»، فأبدي اهتمامًا بطَرق هذا الباب أو ذاك، فيستفيض وحده في إجابة السؤال الذي اقترحه، وكلما راقَت له إجابة صريحة أو قصة مُثيرة من النوعية غير المجازة للنشر، كان يُنادي على النادل ويطلب إليه أن يُضيف صلصةً ما فوق قطعة اللحم، أو أن يُعيد تسخين طبقٍ فقَدَ حرارته.

ثم وجدتُه يرفع منديل المائدة إلى فمه، ويمسح شفتَيه بخفة وتأنٍّ، فرأيتُ أن اللياقة تُحتِّم أن أتوقَّف مثله عن الأكل، فالتقطتُ بعجالةٍ آخر ما تبقى في طبقي من قطع اللحم، ووضعتُ شوكتي قائلًا: «ذوق حضرتك في الأكل هائل بحق».

قال: «ألف هَنا وشِفا.. كمِّل أكلك»، فقلتُ إني امتلأتُ تمامًا وليس لديّ مُتَّسَع للمزيد، فأومأ برضى وسرَحَ يرمق إطلالة المطعم عبر الحاجز الزجاجي.

قال بعد قليل، وكان لا يزال يرنو عبر الزجاج: «سأُصارحكَ بشيء إضافي، لا يصلح للنشر أو للتسريب تحت أي ظرف»، فتنبَّهَت جميع حواسّي ترقُّبًا لسَبْق جديد، وأومأتُ إليه مُشجِّعًا حتى يستكمل حديثه؛ قال: «لقد فقدتُ تمامًا حاسَّة التذوُّق، قبل سبع سنوات».

صمتُّ في محاولةٍ لاستيعاب مقولته، ثم قلتُ باندهاش: «كيف فقدْتَها؟!»

فأجاب: «خُرّاج عميق في الأسنان، أدى لإصابة العصب المسؤول عن التذوُّق».

قلت: «هل أنت جاد؟!»

فضحك قائلًا: «أتظن أني أهزِّر معك يا ذا القمصان المشجَّرة؟!»

أصابني ارتباكٌ مؤقَّت، لكنني استجمَعت نفسي قائلًا: «العفو يا أستاذ»، ثم أكملت: «لكنَّك تأكل بشهية لم أرَ مثيلًا لها من قبل».

فقال: «لا تنسَ أنني ممثِّل كبير!»، وأطلق ضحكةً صافية أخرى، وأشار للنادل: «أين الحلو؟»

«حلو أو حاذق.. يفرق معك؟»

«شكله يفرق، وإحساسه داخل الفم.. الكريمة الناعمة، الرقائق الهشة، المكسَّرات المحمَّصة. متعة».

سكتُّ لبرهة، أتحسَّس اللائق من غير اللائق من الكلام، خشيةَ أن أجرح غلاف الراحة الذي صار يلفُّنا معًا. أخيرًا قلت: «لو كنتُ مكانك لاخترتُ أرخص مطاعم البلد لأملأ بطني بأي طعام والسلام».

«أصدِّقك بالطبع، لو أنك مكاني بقميصك المشجَّر هذا لفعلتَ ذلك، أما معي فالأمر يختلف. «أشعلَ سيجارة رفيعة من علبةٍ صغيرة طوليَّة، وأكمل يقول: «حين تفقد حاسَّة ما، تفقد خُمسَ نصيبك من لذة الحياة، فتحتاج لأن تعوّض نفسك بإذكاء باقي الحواس». امتصَّ نفَسًا عميقًا من السيجارة النحيلة وأردف يقول: «الأحرى أنك تفقِد خُمس حياتك؛ فما الحياة إلا حواسّ خمس متَّقِدة، تُمكِّنك من امتصاص العالم المحيط. تخيَّل لو أنك فقدتَ البصر، والسمع، والشم، والتذوُّق، واللمس.. ستصير جثة هامدة، ألا تتفق؟»

أومأتُ موافقًا، وقلت: «وكم عوَّضتَ من الخُمس المفقود؟»

فسارع يقول: «من الخُمسَين، الشم والتذوُّق؛ عادةً لا تفقِد واحدةً دون الأخرى. وأستطيع أن أخبرك أني عوَّضتُ الخُمسَين بنسبة كبيرة، فأنا أغذّي البصر والسمع واللمس بأقصى ما أستطيع، والأمر ممتع بحق، وأظن أني استمتعتُ بالطبق الشهي الذي شاهدتُه ولامستُه واستمَعْتُ إليه، فوق ما استمتعتَ أنت».

«استمَعْتَ للطبق؟!»

«بالطبع؛ ضربات الشوكة، صرير السكين، رنين الكأس.. أجد اللذة في كل تفصيلة أمنحها التركيز المناسب. أما أنت، فتأكل كنِصف ميِّت».

جرَّبتُ مِنهاجه حين وُضِعَت أمامنا أطباق الحلو، والحق أني لا أعرف حقيقةً إن كنتُ قد استمتعتُ أكثر من المعتاد، أم أنه أفسد عليَّ مُتعة الأكل بالتركيز الزائد؛ الأكيد أني قضيتُ فترةً بعد اللقاء، كنتُ خلالها أكثر تنبُّهًا للتفاصيل ورغبةً في عَيش الحياة بعمق وتركيز، حتى إنني أرجأتُ نشر الحوار لعدة أسابيع، كيلا أفقد مذاقه سريعًا.

وسرعان ما نسيتُ الحوار بعد النشر، حتى استعدتُ ذكراه يوم مات الرجل؛ ماتت حواسُّه الباقية، فأعلنوا رحيله، وأعدتُ نشر الحوار كاملًا دون حذف أول سؤال، فقد كنتُ فخورًا أني منحتُه لذة النظر لقمصاني المشجرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأحجيَّة

مرَّ يا سيدي أسبوعٌ منذ التقيتُه، منذ تحدَّث إليَّ بإيجاز وحسم كبيريْن، قائلًا: «تأتيني الخميس الـمُقبِل، فإما أقتلك، أو أمنحكَ أيَّ شيء تريده، إذا أتممتَ ما بدأتَه قبل سنوات».

لا بد أنك تتعجَّب الآن؛ لِمَ لم أسأله عن مَقصده؟ الحقيقة أني حاولتُ السؤال، بطريقة أو بأخرى، وإن لم أجرؤ أن أفوه بكلمة. كان حاسمًا لدرجة تُصيب بالخرس، وما كان ليُجيبني لو أمكنني سؤاله، فقد أنبأتني عيناه البرّاقتان- كنتَ لتوافقني لو أنك رأيتَه- بأنه قد يغفر لي أيَّ ذلَّة، إلا أن أعجز عن فهمه.

أمضيتُ الأيام أُحصي الاحتمالات، أُسائل المُقرَّبين، أستعيد الذكريات، أتأمَّل صوري القديمة وتلك الأحدث منها، أُسائل عينيَّ الفرحتين، القلِقتين، الذابلتين، التائهتين؛ ماذا خبِرتُما قبل سنوات؟ فيما شرعْت؟ أكان خيرًا أم شرًّا؟ لو كان خيرًا فلماذا تخاذلتُ عن إتمامه، وإن كان شرًّا فلماذا يريد لي أن أتمَّه اليوم؟

ثم كان أن ازددتُ ارتباكًا، حين تكشَّفَت لي أبعادٌ جديدة للأُحجيّة؛ ماذا لو أتممتُ الفعل المقصود؛ أيقتلني، أم يُكافئني؟! أذكر كلماته على وجه الدقة: «تأتيني الخميس الـمُقبِل، فإما أقتلك، أو أمنحكَ أيَّ شيء تريده، لو أتممتَ ما بدأتَه قبل سنوات». لو تأمَّلتَ العبارة كما تأمَّلتُها - مِرارًا وتِكرارًا - ستبدو لكَ مع الوقت مُلتبِسةً بدرجةٍ كبيرة، ظاهرها يوحي بالدفع نحو فعلٍ طيّب، وباطنها يحتمل النقيض. ربما قصد تحذيري من إتمام أمر ما؛ سأقتلك، لو أتممتَ ما بدأتَه قبل سنوات! لِمَ لا

هكذا صارت الاحتمالات يا سيدي، لا نهائية. تناوبَت عليَّ خواطر عديدة؛ أول صلاة جماعيَّة مع زملاء العمل، أول إكراميَّة تقاضيتُها لإنهاء معاملة مواطن مستعجل، أول زيارة لبيت عمّي السجين، أول قُبلة محمومة لزوجته الشابة، أول مُحادثة جنسيّة، أول تبرُّع بالدم.. كلها أفعالٌ منقوصةٌ لو أردتَ الدقة - وأحسب أنك لا تريد غيرَها - خيرها محصورٌ في خانة التجمُّل، وشرُّها لا يفوز بثمرةٍ تستحق.

مرَّت الأيام السبعة دون الوقوف على الفعل المقصود، فضلًا عن إتمامه، وها أنا ألجأ إليكَ ألتمِس النصيحة. بالأمس رفضتُ رشوةً كنتُ في مسيس الحاجة إليها، وفرشتُ الحصيرة الخضراء حيث تُصلِّي جماعة العمل، وفي المساء هاتفتُ زوجة عمي، ومررتُ ببيته عازِمًا أن أُتِمَّ الأمر، فطردتني، وجعلَت عيون الجيران تتابع ذهابي جارًّا خيبتي.

عليَّ الآن أن أُقرِّر، هل أهرب منه لبعض الوقت، أم أسعى لمواجهته؟ ربما الأصوب أن أخبره: «ها قد فشلْت؛ فماذا أنت فاعل؟»، أو أن أحمل سكِّينا وأواجه مصيري، ربما يُسعدني الحظ فأجدهُ قد عاد من حيث جاء، أو يُفاجئني بأنه قصد الخميس التالي، ويكون في حالة مزاجية تسمح لي بأن أستوضح منه.. ربما وربما وربما، فبأي شيء تنصحني الآن، يا سيدي؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

موت حلو المذاق

تربَّع بجوار باب المطبخ، في ردهة الشقة المغطّاة بالأحذية والنِّعال المفرطَحة، حيث جلبة الطبيخ تُشَوشِر على التلاوة الرتيبة، ورائحة الطعام تُفعِم الأنف وتُكركِب البطن. أخذ يفرك بأنامله سطحَ السجادة القديمة العطِنة، فتتناثر حبّات الرمل من فروتها؛ الكثير من الرمل، حملتهُ الأحذية والنعال طوال ساعاتٍ مضَت. هذا يوم كئيب، أكأب يومٍ يمرُّ عليه.

كان مُحبَطًا بشدة، يراه الغرباء العابرون لداخل الشقة، يلحظون عليه سيماء الحزن، فيمسحون رأسه ويُغمغمون بكلمات.. ويظل يشعر بإحباطٍ شديد، بعدما تفقَّد جميع ساعات الحائط الموجودة في البيت، عدة مرات، يفصل بين المرة والتي تليها نحو عشر دقائق.. كانت ماما تُصِرُّ أن عليه الانتظار نصف ساعة أخرى؛ وكان يصبر حتى عشر دقائق، ثم يأخذ جولةً يطوف خلالها على الساعات المعلَّقة، بأبطأ ما يستطيع، إذ ربما تتعطَّف إحداها عليه، فتُمرِّر الوقت أسرع من باقي الساعات.. لكنَّ النتيجة ظلّت مخيِّبة، كأن ثمة مؤامرةً قد حيكَت ضدَّه اليوم.

بدأ آخر جولاته بساعة غرفة بابا وماما؛ كانت لا تزال بطيئةً فوق الاحتمال، لدرجة الشك في سلامة بطاريتها. أما ساعة المطبخ الرقمية فكانت لا تمنح الأمل قط، فلا تُشير بتاتًا لمرور الثواني كسائر الساعات؛ تعجَّب كيف لم يلحظ هذا الأمر من قبل، ولم يستطع البقاء أمامها حتى تتبدَّل الأرقام، معلنةً مرور دقيقة واحدة إضافية، كما كانت رائحة الطبيخ تُثير دموعه وتُهيِّج مشاعره. لذلك تسلَّل خارجًا من المطبخ وتوجَّه مباشرةً إلى الصالة المكدَّسة بالغرباء، حيث ساعة الحائط القديمة ذات البندول المستمر في المرجَحة منذ الأزل، كانت ثابتةً على موقفها كما الجولة السابقة؛ بندول يتطوَّح، وعقارب لا تدور، كأنما ماتت هي الأخرى.

لن يستطيع الصبر أطول من ذلك.. هكذا حدَّث نفسه، فبهذا الإيقاع الشديد البطء لن تمرَّ الثلاثون دقيقة أبدًا، مهما تحمَّل. ستظل الساعات تُعذِّبه، وصوت التلاوة المرتَّلة يصنع ذات الحالة الرتيبة، التي لا تعطي أملًا في أي جديد. كما أن مواعيد ماما ليسَت دقيقةً على أي حال، قد تتأخر عشر دقائق إضافية بعد الثلاثين، أحيانًا ربع ساعة! لماذا تفرض عليه أن ينتظر من الأساس؟ لماذا لا تضع له الطعام في غرفته؟ لماذا اليوم بالتحديد؟! لو كان بابا هنا لكان قد منحَه تصبيرةَ قبل الغداء كما كان يفعل دائمًا، على غفلةٍ من ماما، حتى لا يتضوَّر جوعًا ريثما تُحضِّر هي الطعام، وكان في الغالب سيُشاركه فيها، فقد كان مثلَه يُحب الطعامَ ولا يصبر طويلًا على الجوع.

كانت ماما تُبدي امتعاضَها دائمًا من «الرمرَمة» عمّال على بطّال فيما بين الوجبات، كانت تؤنِّب بابا على هذا التسيُّب الزائد؛ سيسمن الولد، سيصير المزحة المفضلة لزملائه في المدرسة، لن يستطيع مجاراة الأولاد في اللعب والجري، سينهج من طلوع السلم، لن يجد مَن تُعجَب به وتمنحه الثقة.. كل هذا كانت تقوله في غرفة بابا وماما، حين ينفردان بعد الغداء، تُبدي أحيانًا بعض التلميحات أمامه وعلى مسمعٍ منه، وكان أكثر ما يخشاه أن يتأثَّر بابا بكلامها أو يميل لمهاودتها، فيتركه يجوعَ قبل الغداء والعشاء، أو يتوقَّف عن مُطالبتها بأن ترأفَ قليلًا بحال الصبي

وتخِفَ عليه في تمارين النادي، فالولدُ لن يكون بطلًا رياضيًّا مهما حاولت؛ هذه ليست موهبته.. كان يقول لها ذلك، وكانت تردُّ عليه بسخطٍ شديد، لكنها رغم ذلك لم تكن تمنعه هكذا عن الأكل مثلما تفعل اليوم.. ماذا جرى لها؟!

تسلَّل ثانيةً لداخل المطبخ، حيث الروائح الشهية المؤلمة. نظر مُعاتبًا للساعة الرقمية ذات السطح المطوَّس بالأبخرة، والأرقام البليدة. قال في خاطره: تحركي أسرع قليلًا، أرجوكِ! وسحَب كرسيًّا وجلس إلى طاولة المطبخ، حيث امرأة البواب تُساعد ماما وتُعِدُّ وعاء السلطة الخضراء. كانت رائحة محشي الكرنب تُفعِم الهواء؛ أخذ يشتَمُّها، يتنفَّسها، كاد يقضمها.. لاحَظ أن جدَّته تحدجه بنظرةٍ زاجِرة؛ لم يفعل شيئًا يستحق اللوم، هو يجلس فحسب، ويتنفَّس الهواء الشهيّ.. «إنها ماما!»، قال لنفسه باندهاش شديد، كيف تصوَّرها جدَّته لأول وهلة! لقد كبُرت ماما كثيرًا منذ الأمس، هذا الجلباب الأسود الكئيب، والطرحة السوداء الخفيفة المبتلة بالعرق، الملتصقة بجبينها ورقبتها، يجعلانها تُشبه الجدَّة بالضبط، كما أن عينَيها المنتفختَين منذ الأمس، ودموعها التي تذرفها بصمتٍ طوال الوقت، تُشيعان في وجهها كآبةَ الجدّات.

همسَت إليه أمُّه باقتضاب: «اصبر قليلًا.. لا تفضحنا»، ودفعَته بهدوءٍ لخارج المطبخ. ما الذي يجعله يفضحها بجلوسه إلى طاولة المطبخ! أين تُريده أن يجلس إذًا؟ الضيوف الريفيون يملأون البيت، يفترشون الأرض في كل مكان، يحتلّون كل المقاعد والكنبات.. أقارب أبيه، هكذا تقول ماما، حضروا صباح اليوم من بلدتهم البعيدة، بأيديهم الخشنة ذات الجلد السميك، ورائحتهم النفّاذة، لكي يُعزّوها في وفاة بابا، وعليها إطعامُهم قبل الجلوس للعزاء بعد صلاة المغرب. لا مكان له اليوم في البيت، وهذا القرآن المرتَّل الذي لا يعرف له مصدرًا، يتردَّد عاليًا من جدران البيت، يُراقبه من جميع الزاويا، يتتبَّع خطواته، أفعاله، يتربَّص لوقوعه في أي خطأ قد يتسبَّب في فضيحة.

عاد لغرفة بابا وماما، نظر بيأسٍ لساعة الحائط، وجلس بجوار خزانة الملابس ذات الدرفة الموارِبة، التي تفوح من داخلها رائحةُ خليطٍ من عطور بابا؛ كان أبوه يُحمِّم نفسه بزخّات العطر، ثم يمرِّر إصبعه المبلَّل بالعطر أسفل أنفه الصغير، فتفوح منه رائحةُ أبيه، ويمتلئ بالزهو.

نهض وأغلق الدرفة الموارِبة، وارتقى سريرَ أبيه ورقد في مكانه، ضغط بطنَه بمخدته الطريَّة، دفس جوعه في سريره الواسع، تحت لحافه القطني الثقيل.. هنا مات بابا ليلة أمس، هذه رائحتُه، مزيجُ عرَقه وعطره، في حفرة المرتَبة هذه ظل نائمًا حتى الصباح، تُرى أين نقلوه؟ لحفرة أخرى بالطبع، طلب من ماما أن يذهب بصحبة عمِّه ليشهد الدفن، نهرَته وقالت: «مافيش مرواح»، من الجيد أنها نهرَته، كان يُداري خوفه لكي يبدو أكبر من المخاوف، أبدى امتعاضًا مُصطنعًا وحبس نفسه في غرفته، والتَهم آخر مخزونه من البسكويت المملَّح. ظل يتخيَّل كيف أوصلوا بابا عند ربنا نهاية الأمر؟ تقول الجارة طنط وداد إن السمنة قتلته، كثيرًا ما كانت ماما تُحذِّره، لم يكن يكترث لكلامها، بل واستمرَّ يُخبِّئ اللذائذ أسفل المخدة وتحت السرير، ويعرض عليه سرًّا أن يتناولها معه، دائمًا في التوقيت الصائب

تمامًا، حين تكون ماما منشغلة بإعداد الطعام، ويكون الجوع قد قلص بطنَه لأقصى درجة، ولم يعُد يتحمَّل قرصة الجوع ولو لدقيقة أخرى

رقد على جانبه، ودفس يده الغضَّة تحت مخدة بابا المفعَمة برائحته، كأنما يتأهَّب للنوم. لامسَت يده لفافةً صلبة، ملساء، تُخشخِش بصوت السيلوفان ومَلمسه.. إنها أصابع الفوليَّة المحبَّبة لبابا! هل كانت هي من قتلَته ليلةَ أمس؟! الجوع يقرص الآن بقسوةٍ غير مسبوقة، يعتصر المعدة الخاوية، وملمس الفوليَّة الصلب يعِدُ بملء الفراغ المؤلم، مذاقها الحلو يفوح من رائحتها المسكِّرة.. هل تقتله هو كذلك؟ ربما حين يكبُر ويصير في عمر أبيه، وسِمنته، لكنه الآن جائع، جائع جدًّا، ويشتهي الفوليَّة، أكثر من أي شيء آخر.

قشَّر الغلاف الشفاف، أخرج الفوليَّة وأخذ يتأمَّل لَمعتَها المغوِية، قضم قضمة كبيرة، آلَمَت أسنانَه، لكنه أتبعها بقضمة أخرى أصغر حجمًا قبل أن يبتلِع الأولى. صار فمه محشوًّا بكمٍّ موجِعٍ من الفوليَّة اللذيذة، شرعَت عيناه تدمع من لذة الألم، حتى إنه كاد يُنهنه بصوتٍ مسموع، لا يعرف إن كان سيبكي من وجَع فكَّيه، أو بسبب وحدته المؤلمة.. لكنه أغمض عينَيه كابتًا بكاءه، وراح يمضغ بسرعة، حتى كادَت قطع الفوليَّة أن تُسقِط أسنانه اللبنيَّة القليلة التي لا تزال صامدة.

أخذ صراخ الجوع يخفُت ويخفُت كلما ابتلع قضمات الفوليَّة، لاك آخرَ قطعة باقية، ازدردها بسرعة، فتراخَت قبضةُ الجوع بدرجة كبيرة، وشعَرَ هنالك بكآبةٍ شديدة لفراق بابا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بيت الخالة أخت الأم

في الرؤيا زارَتني أمي. رأيتُها جالسةً في زاوية كنبة الصالون، متقوِّسةً على نفسها، لا يظهر منها إلا مفرَق شعرها المستقيم كحَدِّ السكين، وقد تضاءل جسمُها حتى صار أقرب لحجم طفل، وتشوَّشَت نبرتُها، حتى استحالَت كلماتها لغمغمة فم مغمور أسفل سطح الماء. لذلك فهِمتُ المسألة بصعوبةٍ بالغة، حين سألَتني إن كان بإمكاني أن أذهب لبيت الخالة، فقد وعدَتها الخالة أن تُقرضني مبلغًا من المال يكفي لصُنع صدقة جارية، قد تنفع أمي حيث ذهبَت. سألتُها: كم المبلغ الذي وعدَت به الخالة؟ فقالت: يكفي، يكفي.. وتقوَّسَت أكثر مما كانت عليه، حتى غاص وجهُها في ضلوع صدرها البارزة، في نفس القفص الصدري الذي توقَّف فيه قلبُها عن النبض قبل سنوات.

انشغلتُ طويلًا بهذه الرؤيا، بل إن الشلل أصاب حياتي منذ رأيتها. في البداية، استحوذَت عليَّ تلك الهيئة التي رأيتُ عليها أمي؛ كنتُ أظنُّها ستبدو أصغر سنًّا حين تزورني في المنام، ستجيء في صورة حوريَّة جميلة، أو حتى امرأة عادية متوسطة الجمال، لكن في ريعان شبابها.. ليست عجوزًا مُتهالكة على أي حال. تساءلتُ إن كانت تستكمل حياتها حيث ذهبَت، وتطعَن أكثر في السن! ثم أهملتُ هذه النقطة حين ذهب خيالي لنوع الصدقة التي تقصدها أمي، وأيها سيعود بنفع أكبر عليها؟ هل أصنع سبيل ماء بارد يحمل اسمها؟ أم أشتري ماكينة خياطة تُعيل أسرة مُعدَمة؟ قد أستطيع شراء «توكتوك» يصرف على عائلة أكبر عددًا؟ سألتُ عن أسعار «التكاتك» وهالَني ارتفاعها، ما أحالني إلى السؤال الأول الذي لم تُجِبه أمي؛ كم المبلغ؟ فعرفتُ أن الخالة وحدها من يملك الإجابة.

ثم انتبهتُ للمعضلة الأكبر؛ أني لا أذكر بيت الخالة على وجه الدقة.. أعرف أنها تسكن بنايةً تتوسَّط شارعًا ضيقًا ومظلمًا في حي عابدين، على ناصيته زاويةُ صلاة تُشِع لافتتُها بضوءٍ أخضر كابٍ يؤلم العين، ويقطع بابها حاجزٌ خشبي يمنع الأحذية من الدخول.. كان هذا كل ما ترسَّب في ذاكرتي الآخذة في التآكل. الأدهى أني لا أذكر اسم الخالة على وجه اليقين، فليست إلا أختًا لأمي في الرضاعة، لكني أذكر جيدًا مُناداتها بخالة بثينة، وإن ظل الشكُّ يُساورني أن اسمها أمينة.

أجَّلتُ أمر تذكُّر الاسم، فقد كنتُ معتادًا أن أُهمِل الشيء الذي لا أتذكَّره لبعض الوقت، عندها يعود لذاكرتي ببساطة تامة، كأنه إلهام.. وعدتُ أفكِّر في ما يمكن عملُه بالمال المقترَض. اهتديتُ لأن أصنع بنصف المبلغ صدقةً جارية، كما طلبَت أمي، وبالنصف الآخر أرمِّم مدفن العائلة، وأزرع عددًا من الصبّارات أمام المدخل. لكنْ سرعان ما عدَلتُ عن فكرة ترميم المدفن، فكَّرتُ بدلًا منها أن أُصلِح أعطال السباكة في منوَر البيت، حتى لا تتشع المياه الآسنة عبر سقف الصالة، وتطبع بصماتها السوداء فوق الركن المفضَّل لدي. كنتُ أخشى أن ينهار السقف ذات يوم، وقلتُ إن بيت الأحياء أولى من بيت المُتوفّين، فضلًا عن أنني سأكون مُلزَمًا برَدِّ المال للخالة بثينة نهاية المطاف دون عَونٍ من أحد.. أعني الخالة أمينة، أو أيًّا ما كان الاسم.

استقليتَ الميكروباص الذاهب لميدان الأوبرا، ومن هناك مضيتَ على قدميَّ صوب حي عابدين، أشعِل سيجارةً في دبر الأخرى، وأغرز أعقاب السجائر في وضع رأسيّ أسفل أعمدة الإنارة عند كل ناصية أمرُّ عليها. كان بعض الأعمدة مُطفأً، فاعتمدتُ على الضوء المنبعث من السيارات العابرة حتى ألمح أعقاب السجائر. هكذا علَّمتُ الشوارع التي مشَّطتُها شارعًا بعد شارع، وكرَّرتُ الأمر في الليلة التالية والتي تلَتها، حتى رجَحَت في ظني إحدى زوايا الصلاة المُشِعَّة بلون أخضر كابٍ، والتي كان لها حاجزٌ خشبي مرتفع يصل لأسفل ركبتي بقليل، كأنه قفصُ حيوانٍ أليف. هناك شرعتُ أسأل الأطفال، والنساء، حتى الرجل الضرير مُصلِح الأقفال سألتُه؛ جميعهم أفادوا بأنهم لم يسمعوا باسم الحاجة بثينة من قبل، ولا الحاجة أمينة، فيما اقترح بعضهم أسماء أخرى لم تُضِئ في ذاكرتي.

انتابني شيء من اليأس، لم أبرأ منه إلا حين أفادَت بعض النسوة المسِنّات الممتلئات، بأن نساء الحي يُنادَين في أغلب الأحيان بأسماء أبنائهن، الذكور على وجه التحديد، وليس أمرًا شائعًا أن تُعرَف المرأةُ باسمها الذي أطلقه أبواها، إلا فيما ندَر. هؤلاء النسوة كُنَّ من عزَمن عليَّ بكوب الشاي، فيما سحبَت إحداهما سيجارةً من داخل علبتي، وأشعلَتها، وأشارَت إلى بيتٍ تسكنه بمفردها حاجَّة مُسِنَّةٌ ومُباركة، بإمكانها أن تلتقطَ بطرف لسانها شظايا الأخشاب من أعيُن الصغار والكبار، كما تُعالج به أثرَ الشَّرَر المتطاير من ماكينات اللحام.

لبيت الحاجَّة المذكورة بابٌ ضيق، كأنه عروةُ قميص، سُلَّمه يصَّعَّد متلوِّيًا كسُلَّم مئذنة. صعدتُ حتى الطابق الذي أشارَت إليه السيدة، وتردَّدتُ قليلًا أمام الباب المترَّب ذي الضلفتَين، في حين تعالَت صيحاتُ النساء من أمام البيت، يُبشِّرن الحاجة بقدوم مَن يسأل عليها. بعد قليل فُتِحَت شرّاعة الباب، وأطلَّت عجوزٌ ذات عينَين خابيتَين في لون الفستق، وقامة بالكاد تصل لصدري.

«مساء الخير»، قلتُ بنبرةٍ واجِفة، كأني أقف في حضرة مُشعوِذ.

فتحَت العجوز الباب على اتساعه، وقالت: «انتظرتُكَ طويلًا..»

بعد مدَّة، وفيما أجلس قبالتها قُلت: «كيف الحال؟»

قالت: «كما ترى»، ثم عاودَت الصمت.

سألتُها بعد قليل: «هل عرفتيني بعد هذه المدَّة؟»

فمصمصَت شفتَيها قائلة: «وهل أتوه عنكَ يا بني!»

سكتَت طويلًا.. كانت عيناها نصف مغمضتَين، كأنها نامَت، فأردتُ أن أفاتحها في أمر السُّلفة التي وعدَت بها أمي. ساءلتُ نفسي: مِن أين أبدأ؟ وحين لم أجد مهربًا من مُبادرتها قُلت: «أرسلَتني أمي في طلب المال، الذي حدَّثتيها بشأنه في المنام.. قالت إنها ستذكركِ عند أهل السماء بكل خير».

بذهول قالت: «أمك!.. أنا أمك».

أخذتني الصدمة. تساءلتَ إن كانت تقصد أنها في مقام أمي، أو أن الأمر قد اختلط على ذهنها المشوَّش

تلعثمتُ قائلًا: «أرجو المعذرة، هل تذكرين أمر المال؟»

«ألا تفتكر أمكَ إلا لأجل المال؟»

«بل لأجل أمي سعيتُ للمال».

«لأجل أمكَ عُد إلى بيتكَ أولًا، عندها سأعطيكَ كل ما تريد».

تمهَّلتُ قليلًا، ثم قلت: «أي بيت؟!»

فقالت بحسم: «هنا، بيتك».

حدَّثتُ نفسي بأن ثمة خطأً ما.. العجوز لا تعرفني، لم تنظر إليَّ مباشرةً ولو لمرة، بعينَيها الخابيتَين كعَين قطَّةٍ عجوز، مع ذلك تتحدَّث إليَّ كأنما نستكمل حديثًا بدأناه بالأمس.

وجدتُني أقول لها: «أمي.. ربما اختلط عليكِ الأمر!»

«أي أمر؟! هيا قُم، هات الدواء من فوق الكومودينو».

قمت. توجَّهتُ دون سؤال لغرفة النوم، كأنني أحفظ أرجاء البيت عن ظهر قلب. ضغطتُ مفتاح الإنارة، فسقط الضوء مباشرةً على الكومودينو المغطّى بمفرشٍ بالٍ، مُشيرًا لعيني نحو الدواء المطلوب. بجواره كانت صورة أمي في بروازٍ له ضلعٌ ناقص، أو قد تكون صورة العجوز، فقد تمازجَت في ذهني ملامحُهما بدرجةٍ محيّرة! شككتُ لبرهةٍ في كون العجوز أمي بحق، وقد استجاب الله لدعائي وردَّها إليّ.. ثم قلت: أي هذيان هذا الذي أهذي به؟! أمي ماتَت. ليست إلا خالتي.. أخت أمي في الرضاعة. أعدتُ في ذهني هذه العبارات. هذا بيت خالتي، لا بد أني أذكره بدرجة ما. لكن.. لو كانت أختَها في الرضاعة، فكيف تُشبهها لهذا الحد؟ هل يرسم حليبُ الرضاعة ملامح الناس لهذه الدرجة؟!

حملتُ الدواء لخارج الغرفة، ووضعتُه في حِجر العجوز. مدَّت يدها وتحسَّسَت علبة الدواء، استخرجَت منها شريطًا ودسَّت أصبعها في غلافه الخلفي، فانبثقَت حبَّةٌ دائرية بيضاء. أتيتُها بكاسة ماء كانت موضوعةً فوق المنضدة، ثم التقطتُ من يدها مفتاحًا صغيرًا، ناولَتني إيّاه وأشارَت نحو نمليَّة عتيقة بالية. ربما لم تقصِد هذه الإشارة، لكنني سرتُ في طريق ذراعها الممدود وأولجتُ المفتاح في مكانه.

«ستجد المال تحت ألبوم صوركَ القديم»، قالت العجوز.

وجدتُ الألبوم في الرف التحتانيّ في قعر النمليَّة، قلَّبتُ فيه؛ شعرتُ كأني أحفظ صور الألبوم كباطن يدي.. الأولى، صورتي فوق صهوة حصاني الهزّاز، الثانية، صورة ساقي الملفوفة في جبيرة من الجبس، الثالثة، صورتي عند سفح الأهرامات.. كأن ذاكرتي تفيق من سُباتها، لأجد الصور منطبِعةً عليها بنفس ترتيبها.

ابتلعني اليأس. هل تكون العجوز على حق؟! هل أكون ابنها الذي مكثت تنتظره لمدة طويلة؟ أو تكون في حاجة ماسَّة لمن يؤنس وحدتها في أيامها الأخيرة، ثم يرث مالها القليل. ثم إن البيتَ في حال أفضل نسبيًّا من بيتي؛ لا يبدو بحاجة لإصلاحاتٍ عاجلة.

تركتُ الألبوم مُشرَعًا فوق النمليَّة، ودسستُ المال في جيب سترتي الداخلي، واستأذنتُ العجوز في الذهاب حتى آتي بملابسي.

قالت لي: «سأنام في مطرحي حتى تعود»، وأغمضَت عينَيها كرضيع شبعان.

مضيتُ أهبط درجات السلم. حيَّيتُ النسوة البدينات والسيدة التي أشارَت عليَّ بمكان خالتي، أو أمي، أيًّا كان كنهُها، وعدتُ من حيث أتيت. جال بخاطري أن أمرَّ على المقابر، وأسأل التربيّ عن مدفن أمي، لكنني تحسَّبتُ أن يتَّهمني بالجنون، أو الجحود، قلتُ إنه قد يطمع في النقود في كلتا الحالتين، لذلك عقدتُ عزمي على المبيت في بيتي ليلة أخرى، إذ ربما أصل ليقين قاطع أستريح إليه، أو قد تزورني أمي في المنام من جديد، وتحدِّثني بما يحسم الأمر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الركن المظلم

كانت تكرهني لسببٍ لا أعلمه، أو كنتُ أنا من يكرهها، ليس ثمة فارق، فلم أكره أحدًا من قبل إلا مَن أرى كراهيتَه تسطع نحوي بوضوح تام. لا أنسى عينَيها البراقتَين، اللتين يحيط بهما محجران عميقان، يتوسطان وجهًا مستطيلًا مقدودًا من حجر أبيض. كانت أيرلندية شديدة الشَّقار، ربما بفعل الشيب الذي يتخلل شعرها الذهبي، فيُحيله للون تائهٍ بين الأصفر والأبيض. وجنتاها غائرتان كالمومياوات، وعيناها خضراوان في لون الفستق، يتوسَّطهما بؤبؤبان عسليّان يَبقَيان في مخيِّلتي إثر كل نظرة تضرب بها أعصابي المشنَّجة.

السيدة ماكارثي؛ هذا اسمها، مدرسة العلوم في الصف الخامس. كنتُ في عُمر العاشرة حين انتقلتُ لمدرسة أيرلندية في مدينة الكويت، ذات مبنى مربَّع صغير تُحيطه باحةٌ رملية تبخُّ الصهد طوال النهار، كأنما تَشويه. قبل انتقالي كنتُ أدرس في مدرسة خاصة تديرها الراهبات الكاثوليك؛ مدرسة مُشتركة، تستحمل الذكور حتى الصف الرابع الابتدائي، ثم تقذف بهم بعيدًا عن الفتيات خشية أن يتمّوا العاشرة. كانت أيامًا حزينة وقاسية، تلك التي تركتُ فيها مدرستي المحببة لقلبي، رغم قسوة الراهبات. كنتُ متعلِّقًا بجدرانها السميكة ذات اللون الأصفر المبهج، وفصولها الصغيرة ذات المكيفات الشباك بأزيزها المزعج. أتصوَّر أن سببَ تعلُّقي بها هو وجودُ أخواتي البنات الأكبر سنًّا في نفس المدرسة، كنتُ أستشعر الأمان حين تمرُّ إحداهن خارج الفصل، فتنظر إليَّ نظرةً مبتورة من الشباك المطل على الطرقة الخارجية، وربما تلوِّح نصفَ تلويحة قبل أن تسرع بالذهاب، وإذا ما تأخر أبي في المرور بنا بعد نهاية اليوم الدراسي، أستطيع اللعب مع أصدقائي المنتظرين مثلي بأمان، فدائمًا ما أجد من تأتي لاصطحابي في اللحظة المناسبة تمامًا، وربما تحمل عني حقيبتي كمكافأة على استجابتي السريعة، وتركي الملعب الرملي على الفور.

أما السبب الآخر المحتمَل، فكان وجود زميلتي نيـ□ـين، المصرية السمراء، ذات الشعر الأسود الفاحم. كانت أول فتاة أشعر حيالها بدفقة شوق غامضة؛ أول جريمة عشق أتلبَّس بها أمام أمي، إذ اكتشفَت منديلًا ورقيًّا كنتُ قد أعددتُه ودفستُه في قعر حقيبة المدرسة، لكي أدسَّه خفيةً وسرًّا في حقيبة نيـ□ـين، آمِلًا أن ينقل المنديل شعوري المبهم في صورة قلبٍ مرسوم بأناة، وحرفين مرتجفين، يفصلهما سهمٌ مائل. ارتاحَت أمي لوقوع أداة الجريمة في يدها ليلة التنفيذ، فصار بإمكانها أن تتستَّر عليّ، هدَّدَتني بإبلاغ أبي حال كرَّرتُ فَعلتي الشنعاء، لم أكن أخشى تهديدها ولو بدرجة طفيفة، فقد كنتُ أعلم أن مبادرة جريئة كهذه ستُفرِح أبي لو سمِع بها، لكونه كان يخشى عليَّ من خجَلي الشديد حيال البنات، ويودُّ أن أتلحلح ولو قليلًا. لكن حين رأتني أمي أوغِل في الحزن وأنزوي طويلًا في سريري، رقَّ قلبها وصارت تُخفِّف عني؛ تقول إن ستر الله أوقع المنديل في يدها دون غيرها، وهي سَتْري وغطائي، وأن عليّ أن أشكر الله أن رتَّب الأمور على هذا النحو. لم أشكره بالطبع، فغاية أملي وقتها كان بلوغ المنديل مرماه المقصود، لكي يُفصِح نيابةً عني بما فشلتُ في الإفصاح به. أما ما قالَتهُ أمي عفوَ الخاطر، وكان سببًا فعليًّا في

التخفيف عليّ، فكان أني سأترك المدرسة شئتَ أم أبَيتَ بعد ثلاثة أشهر، «أكنتَ ستفرح عند هذه اللحظة لو أن الرسالة وصلَت زميلتَك؟ أم كنتَ ستندم لا محالة؟ فكِّر في الأمر». وبالفعل، فكَّرت، وارتضَيتُ أن أحتفظ بصداقة نيڤين، على المخاطرة بإغضابها وفقدانها إلى الأبد.

كان علينا الاختيار بين انتقالي لمدرسة خاصة للبنين، تُدرِّس المنهج الحكومي المعتاد باللغة العربية، ويدرُس فيها ابنٌ لأقرب أصدقاء أبي، أو الانتقال لمدرسة دوليَّة كما أصرَّ عمي الطبيب حامل الشهادات، التي ينوء بحملها حائط عيادته. ظل أبي حائرًا في الاختيار؛ زيادة هائلة في المصروفات، مسافة أبعد، لغة عويصة تعيقهم عن مساعدتي في الفروض المنزلية، وفوق ذلك خوف أمي الشديد عليَّ من الاختلاط بالفتيات الأجنبيات، المنفتحات على كل شيء. استقرَّ رأي أبي نهاية الأمر أن يترك لي حرية الاختيار، أو بالأحرى عبئه؛ طفل لم يبلغ العاشرة بعد، يقرِّر وحده مصيره الغامض. اخترتُ المصير الأكثر غموضًا، فقد كنتُ مبهورًا كما جميع أسرتي بنموذج العم الفريد حاصد الشهادات، وأبنائه الذين لا يفهمهم أحد حين يتحدّثون فيما بينهم، كما رغبتُ في مُخالطة أولئك الفتيات الأجنبيات اللاتي تخشاهن أمي؛ قد أجد بينهن من تُعوِّضني خسارة نيڤين.

انتقلتُ لمعسكر الأيرلنديين الأكثر صرامة من الراهبات الكاثوليك؛ اللغة العربية ممنوعة منعًا باتًّا لا فصال فيه، من يُضبَط بجريمة التحدُّث بالعربية، سواءً في الفسحة أو بداخل الفصل، أثناء الدوام أو حتى بعده، ينال بطاقة حمراء؛ ثلاث بطاقات حمراء تعني توقيع عقوبة مُشدَّدة؛ الحبس خلال أوقات الفسحة لثلاثة أيام، تحت رقابة الشقراء ذات الشعر الأشيب والعينين المخيفتين. تكرار العقوبة يعني الفصل التام لمدة أسبوع، والحق أن المكوث في البيت طوال أسبوع، وتحمُّل نظرات اللوم المستعِرة في أعين المحيطين، لهو أهون بكثير من البقاء لساعة كاملة مع الشقراء الطويلة المرعبة. كنتُ أُطالعُها سرًّا أثناء فترة الحبس؛ تُمسِك بكتاب أو روايةٍ سميكة مثنيَّة الأطراف، وتقرأ في صمت تمثال، وجهها الأبيض ذو العظام الناتئة يُنذِر بقسوةٍ لا حدَّ لها. أين هذا من وجه نيفين، الأسمر الرقيق، ذي الخدَّين الممتلئين المتورِّدَين، والحيوية المفعمة.

ثم سنحَت لحظة انتقام لا تتكرَّر، سيُغيّبها وعيي الطفولي في مقبرة الجرائم الصغيرة. كنتُ لا أزال أعاني من صعوبة كُتُب المدرسة ذات الكلمات الإنجليزية المستغلقة؛ أحتفظ على طاولتي بقاموس سميك، ثقيل كمكواة أمي الحديدية، أُقلِّب فيه مع كل جملة أقرؤها، أحيانًا مع كل كلمة. بدأتُ بقاموس المورد الكبير، مترجِمًا جملةً بجملة من الإنجليزية غير المفهومة إلى العربية المعقَّدة، حتى تدخَّل عمّي ناصحًا أبي بأن أستخدم قاموسًا إنجليزيًّا صِرفًا، وإلا فلن تتطوَّر لغتي وتكتسب المزيد من المفردات، وأظل أعاني إلى الأبد. عند هذه النقطة، تلاشى السراب الذي كنتُ ألاحِقه.. ما عاد ثمة أملٌ أسعى خلفَه، صار العالم مُركَّبَ الأجزاء من كلمات إنجليزية غير مفهومة، تكلُّ عيناي من قراءة سطور الكُتُب الدقيقة، وتعريفات القاموس الأكثر دقة، فأنام بعقل متورِّم، وتلمع في فضاء أحلامي كلماتٌ من عشرة أحرف، من خمسة عشر حرفًا، عشرين، كلمات كما سلاسل كونية تسبح في فضاء

مُقبِض، أظل أبحث عنها بين صفحات قواميس تتطاير في الهواء، أحوم فيما بينها غاديًا رائحًا ببطء رائد فضاء، بلا بريق أمل.

نمتُ مُسهَّدًا ذات ليلة، واستيقظتُ قلقًا مما ينتظرني في حصة العلوم، حين تسألني الشقراء المرعبة عن فرضي المنزليّ؛ أظنه كان متعلِّقًا بوصف دورات حياة الثدييات والحشرات والطيور وعمل رسومات بيانية توضِّحها، شيئًا من هذا القبيل. حملتُ القاموس الثقيل بداخل حقيبتي، كدليلٍ على محاولتي المستميتة فهم الدرس. فتحتُ الكتاب على الصفحة التي توقَّفتُ عندها بالأمس، ووضعتُ القاموس إلى جواره فوق طاولتي، والقلم الرصاص يرجف بين أصابعي كلما اقتربَت الطويلة الشقراء. راجعَت سريعًا كراسة زميلتي الجالسة بجواري، ثم استدارَت نحوي وواجهَتني. أخذَت ترمقني بعينين زجاجيتين يمتزج فيهما الزيتون والعسل، كأنهما بِليتَان من تلك التي نلعب بها وقت الفسحة.

«الفرض المنزلي»، قالت بصرامة، فشرعتُ أشرح معاناتي بكل إيماءة ممكنة؛ أحشر كلمات إنجليزية قليلة أعرفها في سياق أحسبه مفهومًا.. الدرس.. كلمات كثيرة.. قاموس.. قاموس آخر.. كلمات صعبة، كثيرة.. صعبة جدًّا.. أشير لمحاولات كتبتُها بخط صغير في هوامش الكتاب، أقرِّب القاموس إليها، أفرُّ صفحاته. بدأتْ ضحكات الزملاء تُفلت من محبسها، فصارَت تلتفتُ إليهم بِمنة ويسرة وتنثر نظراتٍ كالشَّرر المتطاير. «الصمت»، تقول، فيعلو الترقُّب مُحلِّقًا فوق رؤوس التلاميذ، ويضيق الخِناق عليَّ. عادَت تُصوِّب نظراتها الحارقة في عينيَّ مباشرةً، رفعتُ إليها القاموس أُشير لكلمة لم أستطع فهمها، فضربَت بيديها العجفاء صفحة القاموس قائلةً: «توقَّف!». سقط القاموس صافعًا جانب وجهي، وفي إثره سقط قلبي لأخمص قدميّ. صرتُ أرتعد من يدها الممتدَّة نحوي لا أعرف مستقرَّها القادم. مكثتُ مُنكفئًا على ذاتي المبلَّلة، شاعرًا باختناق شديد يغصُّ في حلقي، استمرَّ معي حتى نهاية الحصة.

علا الضجيج حولي فانتبهتُ لنهوض الشقراء تأهُّبًا للرحيل. كانت تلملم أغراضها حين لمحتُها تُشير إليَّ بسبّابتها الرفيعة المرعبة؛ اقترِب.. توسَّلتُ دون صوت: لا حاجة لاعتذاركِ، فقط اتركيني لحالي، أرجوكِ! وما إن صرتُ على مسافة ذراع منها حتى مدَّت يدها بكارت أحمر جديد؛ كان ثالث كارت يلتصِق بي. لم أكن لأتحمَّل المكوث معها لساعات أخرى في الحبس الانفرادي؛ كان عليَّ التخلص من خطرها الداهم بأية طريقة ممكنة، وكان من بين ما أُخبِرتُ به عن ميزات المدارس الدولية، أن الطلبة محميّون تمامًا من عنف المدرسين؛ من يَضرب طالبًا يُفصَل على الفور، فلماذا لا يكون الفصل مصير هذه الشقراء المرعبة.

قلَّبتُ الأمر على وجوهه المحتملة، وفي المساء بدأتُ التحرُّك. «ما وعدتموني به غير صحيح»، أخبرتُ أمي تمهيدًا لضربتي التالية. تركَت تطبيق قطع الغسيل وقالت: «وما الذي وعدناكِ به؟»، حدَّثتُها عما حدث؛ عن معاناتي مع الفروض المنزلية، عن محاولاتي المضنية البائسة، عن منعي من الحديث مع زملائي باللغة التي نعرفها جميعًا، كل ذلك تحمَّلتُه لأنهم أخبروني به مُسبَقًا، لكن ماذا عن ضربي بعد كل هذا؟! «من ضربكِ؟!»، سألتني أمي بقلق بادٍ، فقلت: «مدرِّسة العلوم، مسز

ماكارثي»، قالت بفزع: «كيف ضربتك؟»، قلت: «على وجهي».. قلتَ ذلك وقد تأجَّجَت بداخلي شهوة الانتقام. فزِعَت أمي لما سمِعَته، ولم يكن بإمكانها الذهاب إلى المدرسة في اليوم التالي مُباشرةً؛ لا بد أن تحصل على إذن مسبق من العمل، لذلك كان عليَّ الانتظار، فاضطررتُ لتقويت حصة العلوم، مُدَّعيًا إصابتي بألم غير محتمل في معدتي، ومكثتُ طوال الحصة في دورة المياه، أُصدِر أنينًا مصطنعًا على مسمع من المشرفين.

وفي اليوم التالي، عرفتُ بمجيء أمي حين استُدعيتُ من حصة الحساب. كانت بانتظاري في غرفة مدير المدرسة، وبجانبه تقف الشقراء فارعة الطول، على وجهها الرخاميِّ سيماء عدم التصديق. «هل صحيح أنك تشكو مُدرِّستك؟»، سألني المدير، وترجمَت أمي. تجنَّبتُ النظر ناحيتها، وأومأتُ بالإيجاب. «تقول والدتكَ إن السيدة ماكارثي صفعتكَ على وجهك، هل أخبرتَها بذلك؟»، أومأت ثانيةً ناظرًا نحو أمي التي ترجمَت مقولتَه، فعاد يقول: «أجِب بنعم أو بلا»، قلتُ بصوتٍ متحشرج: «نعم». قالت هي من الزاوية المظلمة حيث كانت تقف: «نعم؟!»، فلم أعلِّق.

قال المدير ما ترجمَتهُ أمي بأنه سيمنحنا أنا والسيدة ماكارثي فرصة الحديث مُنفردَين، فيما يقوم هو باصطحاب أمي لخارج المكتب لمدة دقيقتَين.. كنتُ أشعر بنظراتها مصوَّبة تجاهي، تخترقني كأشعة إكس، ترمق هيكلي المجرَّد من الكذب، لتعرضه أمام المنتظرَين بالخارج. «أنا صفعتُكَ؟!»، سألَت بنبرة وحشية خشنة، فقلتُ بجمود: «نعم، فعلتِ». بدهشةٍ أكبر كرَّرَت: «أنا، صفعتُكَ!»، قلت: «نعم»، وصمتُّ تمامًا حتى عاد المدير، دلفَت أمي في إثره، عندها أكملْت قائلًا: «فعلتِ».

ظلَّت ذاهلةً حتى ذهبنا أنا وأمي. مُنِعَت بعدها من دخول الفصل، فكانت لا تخطو خارج غرفة المدرِّسين، وصرتُ أتجنَّب المرور أمام تلك الغرفة ما استطعْت. بعد أسابيع علمتُ بفصلها؛ أخبرتُ أمي، التي كانت تسألني كل بضعة أيام، ومنذ نقلتُ إليها الخبر صارت تقصُّ قصَّتنا البطولية لجميع صديقاتها؛ تمجِّد أنظمة التعليم الدولية، وتُباهي بالموقف الذي اتَّخذناه، وأيضًا موقف المدير الأشقر الوسيم. يبتسِمنَ إليّ فخوراتٍ بشجاعتي، فيخفق قلبي ويقفز لحلقي، أجاهد لأبتلعه من جديدٍ دون أن يلحظن، وأعصر جانب فمي في ابتسامة باهتة، تُطمئنهم أنني بخير. سرعان ما تخبو ابتسامتي، أخفض عينيَّ هربًا من ركن الصالة المظلم، المجاور للأباجورة مقطوعة السلك، حيث يقف شبح السيدة ماكارثي ليل نهار، يرنو إليَّ باندهاش.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قانون الخبز

يُحسَب لعيّاد أنه عاد من غيابه الطويل خارج البلاد، بلا زوجةٍ أجنبية لا يُعرَف أصلُها ولا فصلها، ولا أبناء لا يعرفون خُبز أجدادهم ولا طريقتهم في الحَكي، كما يُحسَب له أنه عادَ حاملًا لأبيه وأمه ثمارَ عشر سنوات من الكدِّ والعرق، بل والتقشُّف، امتصَّت سوادَ شعره الأسود الداكن، وشوَّشَت لكنته التي ما عادت خالصةً كحالها أمس.

فيما يُحسَب عليه تلكُّؤه الطويل قبل أن يُقرِّر العودة، وعدم اهتمامه بخطابات أمه صانعة الخبز، التي استمرَّت ترسِلها إلى محل عمله مع مطلع كل شهر، كأنما لتُكرِّر عليه خاتمة الرسالة مع كل راتب يتقاضاه: «لا زلنا نذكُرك يا عيّاد، ونذكر تلك الأيام السعيدة حين كنتَ ترسِل إلينا نصف راتبك نهاية كل شهر»؛ إنها العبارة التي ظل يتحاشى سماعَها وجهًا لوجه من لسان أمه المعروف بالسلاطة.

ها هو اليوم يعود، بعد أن ذهبَت أم عيّاد بسلاطة لسانها؛ يعود ليجد المأساة قد وقعَت بالفعل، وأعفَته ليس فقط من لسان أمه السليط، بل من وجودها بالكليَّة.

والمأساة بدأت يوم انتزع المغاوير رُقعةً من أرض الله الواسعة، غرسوا فيها نواةَ حُكمهم باسم الله الواحد الأحد؛ أحاطوها بتحصيناتهم، وأخذوا ينقلون إليها الرجال والعتاد كل جُمعة، وراحوا يجوبون الشوارع والطرُقات في عرباتهم ذات الأسطح المكشوفة والرايات السود والمصابيح المُقطِّبة؛ يخترقون الأسواق في ذروة الزحام، ويَصُفّون عرباتهم على هيئة قوسٍ مُصوَّب نحو العامة المتجمهرين، المزروعين في أماكنهم يخشون الهرب، يرمقونهم من خلف لُثُمهم السوداء، يبحثون عن نظرةٍ لم تنكسِر بعد، أو رجفةٍ لم تُحدِث أثرَها كاملًا في تحطيم الروح، فيصلبون صاحبها فوق صارية منصوبة خلف العربات، أو يحبسونه بداخل قفصٍ ويُضرمون فيه النار.

هكذا أقام المغاوير شِرعتهم ورفعوا كلمتهم على أسنَّة بنادق سوداء، وفوق نسيج شارات سود، حتى عمَّ السواد القلوب والبيوت واستقرَّ الغم. صارت الرجفة تسري في أطراف الناس لو جاء ذِكرُ المغاوير ولو بشكلٍ عابر، وما عاد اللون الأسود يُعيد للأذهان ذكرى الموت وحده، بل رعشة الذعر وذلَّة الهوان.

لم تلحق أم عيّاد بزمرة الخائفين من بطش المغاوير، كانت لا تُعنَى بما يُردِّده الناس، ولا تحمل همًّا إلا هَمَّ البيت والفرن، وغياب عيّاد، الذي هجَر أمَّه التي أرضعَته من ثديها وتوقَّف عن إجابة رسائلها. وكانت لا تعبُر حدود البيت إلا لحضور قُدّاس أو نصف إكليل. إذ لم يكن فُرن أم عيّاد صانعة الخبز إلا حوشًا مُلحقًا بالبيت، ومنه ظل الخبز يخرج كل صباح، ويُطعم سكان الحي حتى آخر زقاق.

وما كان لعيّاد أن يتعرَّف بيتَه المبني من الطوب الأحمر، لولا وجود شجرة الزيتون في مكانها من حوش البيت، ولولا تأكيد جارهم الأسطى مصطفى، صاحب صالون الحلاقة المجاور للفرن، والذي اصطحب عيّاد منذ عاد من غيابه، وجاء به لكي يُعاين بنفسه آثار المأساة؛ إذ بدا البيت مهجورًا مُحطَّمًا كأنه طلَلُ مدينةٍ بائدة، الطابق

الأعلى مُهدّم تمامًا، والسلم الصاعد إليه عارٍ مكشوف الرأس، كأنما يشكو الفجيعة للسماء، وأجولة الدقيق المكوَّمة تحته مبقورةُ البطون. أما الفرن، فقد وجده مُسودًّا تمامًا من أثر الحريق، بخُبزه وطباليه ومرصّاته الخشبية.

قصَّ عليه الأسطى مصطفى، كيف اقتحم سبعةٌ من المغاوير الضخام فرنَ الخبيز، حاصر خمسةٌ منهم أم عيّاد، مُلصِقين جسدها المكتنز مثل العجين بفوهة الفرن، التي كانت تبخُّ الصهد منذ الفجر، فيما أخذ اثنان آخران يصُبّان الكيروسين في محيط الحوش، ويُشعلان النار قبل خروجهم مُقتادين أم عيّاد صانعة الخبز، جَذبًا من شعرها الأبيض مثل كومة قطن.

وقف الأسطى مصطفى بين زمرة الجيران التي تبعثرَت لتُفسِح الطريق للموكب الأسود، والتي لحِقَت بعربات المغاوير سيرًا على الأقدام حتى حلقة بيع السمك، وتابعوهم فيما يوثقون جسدَ أم عيّاد، ويربطونه في صاريةٍ خشبية مُقتلَعة من مركب صيد قديم، كانوا قد نصبوها عند قدومهم لإحراق المُعارضين.

وما كانت صانعةُ الخبز من المؤيدين ولا المعارضين، كانت تصنع الخبز فقط، وتبيعه إلى الجميع بمن فيهم جنود المغاوير، غير أنها استبعدَت تمامًا أن يكون صِدقًا ما نقله الجيرانُ عن تحريم أمير المغاوير لصناعة الخبز، حتى إنها قالت لبعض النسوة مساء اليوم السابق: «ما تقُلنَه مجرد هراء، تُردن به قطع عيشي ودفعي لهجر المدينة كما فعل الكثير من أبناء مِلّتي. ولعِلمكن، لن أترك بيتي حتى يعود ولدي عيّاد، الخائب النذل، بل لن أترك بيتي إلا ذاهبةً إلى القبر، حين يُريحني ربي من وجوهكن العكِرة!»

وهكذا كرَّرَت على أذُن الأسطى مصطفى، صباح يوم المأساة، قبل أن تشرع في إعداد العجين كعادتها كل صباح، لكي تبيع الخبز لزبائن الفرن حين يأتون بعد قليل كما كانت تعتقد، رغمًا عن حسد الجارات وحقدهن الدفين.

قال لها الأسطى مصطفى: «يا أم عيّاد، ألا تنظُرين! الزبائن لا يأتون خوفًا من الأمير، لقد أصدر فتواه في جمعة الأمس بتحريم أكل الخبز، قال: إن خَبزَ العجين يحتاج للخميرة، والخميرة مصغَّر للخَمر، أي أنها تُحيل الدقيق لما كان كثيرُه مُسكِرًا، فقليلُه إذًا حرام!»

وحين لوَّحَت نحوه بيدها المخضَّبة بالعجين، علامةً على استهتارها بما يقوله رجلٌ مخرِّف مثله، أصرَّ عليها قائلًا: «صدقيني يا أم عيّاد، أقسم بحياة ابني زياد وابنكِ الغائب عيّاد، لقد منَع الناسَ من شراء الخبز، وأمرهم بالتخلُّص مما في بيوتهم والاستبدال به أرزًا أو عجينًا غيرَ خمران، كما يفعل الناس في بلاده البعيدة التي جاء منها لكي يُقيم شرع الله».

أم عيّاد، برأسها المجبول على العناد وقلبِها المرتاب دومًا فيما يُضمِره لها الجيران، أصرَّت أن تصنع الخبز كعادتها وألا تسمع كلام أحد، لا كلام الجارات الحقودات، ولا كلام الأسطى مصطفى صديقها القديم وأخيها في الرضاع، ولا حتى تأتأة

زوجها أبي عيّاد العاطل دومًا عن العمل، والذي أرسلته منذ طلعة النهار لكي يتقصّى الشائعة ويستوثق من كذبها.

لكن سرعان ما فاح خبزُ الخبيز مثلما فاحَت رائحتُه، فأقبلَت عربات المغاوير لاستيقاف مَن خالف الفتوى. حدجَتهم أم عيّاد فيما يقتحمون باب الفرن مُقنَّعين بالسواد، وأطلقَت صوبهم نظرتها النارية التي تُخيف بها الزبائن، وصاحَت فيهم بأنها لا تُصدِّق بلوغهم هذا الحد من الجنون؛ «هل تُحرِّمون طعامَ الأطفال، ومُقيمَ أود الناس؟ هل تُحرِّمون لحمَ المسيح وصالب أكتاف الفقراء؟»، لم يمهلوها أطول من ذلك، إذ جذب واحد من المغاوير السبعة شعراتها البيضاء، وانتزع منه خصلةً قصيرة علَت لمرآها آهاتُ الجبران المتجمهِرين، أولئك الذين شهِدوا إحراقها صامتين، عاجزين حتى عن هشِّ ذبابة كانت تحوم حول رأس أم عيّاد المبلَّل بالعرق. حتى اقتطاع نسيرةٍ من لحم صانعة الخبز، وإطعامها لكلاب السوق، لم يجد من يحول دون حدوثه.

هكذا أتمَّ المغاوير العرضَ المشهود، ثم أقبل أميرهم في موكبٍ من العربات ذات الأسطح المكشوفة، التي تحمل رجاله الملتحِفين بالسواد، حاملي البنادق السوداء والرايات السود. انتصب الأمير واقفًا أمام صارية المركب، التي تعلَّق فيها جسد صانعة الخبز المحروق، وأعلن على مسمع الناس عدمَ رضاه عما اقترفه المغاوير؛ قال إن إحراق المرأة قبل صدور قانون الخبز بصفةٍ مُعلَنة، أمرٌ يُنافي سماحة الدين، ولا يُعفيهم من الإثم كونه أعرب عن نيَّته إصدار القانون في جمعة الأمس، وقال إنه سيُنزل العقابَ على المتورِّطين ويُصوِّب الخطأ في أسرع وقت.

وبالفعل، لم يمر اليوم حتى كان القانون قد صدر عن أمير المغاوير، بتحريم أكل الخُبز وتجريم خَبزه وبَيعه للناس، والأمر بمعاقبة مَن يُخالف ذلك بمائة جلدة بالسوط المغموس في الزيت المغلي. لكنَّ أحدًا من مغاويره السبعة لم ينَل أي عقوبة، فقد عرف الأمير بما جرى من أمر صانعة الخبز النصرانية وليَّة الطاغوت، وما أوجَب إحراقها ليس خَبزها العجين فقط، بل سبّها شريعة الله وإعلاء كلمة الباطل على الملأ، ما عقوبته الإحراق دون إبطاء وعلى مشهد من الناس. هكذا اعتبر الأمير ما قام به مغاويره موافقًا تمامًا لشريعة الله، ونبَّه على الجنود بضرورة التضييق على النصارى، والقبض على مَن ينبس بنصف كلمة تسبُّ أحكام الشريعة.

«ليتكَ عُدتَ مبكرًا قليلًا يا عيّاد»، هكذا قال الأسطى مصطفى، «ليتكَ رحلتَ بأبيكَ وأمكَ بعيدًا عن هذه الناحية، ورحِمتَ شيبتَهما من هذه الأيام العصيبة»، ثم اقترح عليه أن يبحثا سويًّا عن أبي عيّاد، الذي لا يعرف أحد أين ذهب منذ ذاك اليوم الأسود.

فيما كان عيّاد مشغولًا بتأمُّل خصلة شعرٍ بيضاء، كانت ملقاةً لصق جدار البيت. رفعَها إليه، وأخذ يُحمِّمها تحت أشعة شمس الظهيرة، ثم جثا على رُكبتَيه وراح يحفُر حفرةً صغيرة أسفل الجدار، وضع بداخلها الخصلة الناعمة، وأهال عليها التراب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

كادر

في ظُلمة القاعة الكبيرة؛ حيث لم ينفجر الصخب بعد، وحيث الصوت لا يزال يأتي من بعيد، والضوء لا يصدر إلا عن شاشة عملاقة وحيدة في ركن القاعة، تنقُل بخرَسٍ كامل وقائع الزفَّة التي تجري بالخارج

تحت سقف القاعة هائل الارتفاع، وبين جدرانها العالية البعيدة عن المنال، جلس إلى الطاولة المخصَّصة لأسرته، مُطأطئ الرأس، يرمق سلسلة مفاتيح أمه التي يتعلَّق فيها أملُ الخلاص

بدَت المفاتيح مُغويةً لدرجة غير مُحتمَلة؛ مفتاح البيت يلمع ببريق أزرق خافت، ويرقد أسفل منه مفتاحُ السيارة في وضعٍ عامودي؛ سيارة أمه المركونة في جراج الفندق، حيث يمكنه التحرُّر من الحذاء اليابس، والطيران بعيدًا عن كل شيء.

مدَّ يده أسفل المفرش الأبيض الثقيل، مُحاوِلًا تخليص كعبَيه من قبضة الجلد اليابس.. كم يكره الأحذية الجلدية، خاصة هذه الكلاسيكية اللامعة، التي تُلبَس لأجل النفاق العام.

«ازيك يا رمزي».

استدار مأخوذًا نحو مصدر الصوت، فيما حطَّت فوق كتفه يدُ ابن عمه؛ كان واقفًا بقامته الطويلة وراءه مباشرةً، حاملًا طفلته الرضيعة الملفوفة في شال أبيض، يرنو نحو الشاشة العملاقة التي تعرض زفَّة العروسين.

ربَّت كتفه قائلًا: «الصوت عالي جدًّا على البِنت، خافت من دق الطبول، على الله يخلّصوا بسرعة».

ثم أكمل يقول: «عقبالك يا رمزي».

طالع ابنَ عمه بابتسامة غير مُكترثة، وعاد يرمق سلسلة مفاتيح الخلاص. منذ زمن لم يعُد يذكُره، توارى اسمُه خلف اسم أبيه. لا أحد يناديه (محمد).. منذ توقَّف الجميع عن مُناداته (حمادة)، صار (رمزي). أمه فقط مَن لا زالت تُناديه (محمد).

«إنت هنا يا محمد؟! ما حضرتش الزفة ليه يابني، إحنا بنستخبّى من الناس!»

تناول هاتفه وأخذ يُقلِّب فيه، هربًا من حديث أمِّه الممِل. سرعان ما انشغلَت هي بدخول العروسين؛ ذلك المشهد الأسطوريّ، الذي سيتندَّر به الحضور طويلًا بدءًا من هذه الليلة. فتَح الواتساب، وكتب اسمَها في خانة البحث؛ (مليكة).. انبجسَت أمامه محادثته معها؛ قائمة رسائل لا نهائية، يفصِل بين كل رسالة والتي قبلها عدَّةُ شهور؛ «كل سنة وانتي طيبة»؛ «مبروك النجاح»؛ «طمنيني عليكي»؛ «هتشوفي ماتش مصر فين؟».. كانت قد توقَّفَت قبل سنوات عن الرد على رسائله. خرج من المحادثة؛ قرَّر مسحها؛ سأله الهاتف إن كان واثقًا من رغبته في مسح المحادثة، داس: امسَحْ، ونظر إلى الواتساب وقد تخلَّص أخيرًا من وجودها. فتح قائمة أرقام الهاتف؛ بحث عن (مليكة)؛ مسَح رقمها وتنفَّس الصُّعداء

التفتَ يرنو إليها فيما تَراقِص عريسَها؛ تَشبِّك أصابعها خلف عنقه، تَركَز عينيها في عينَيه، تُنوِّمه، تُلامس صدرَه بثدييَها، تُذيقُه الثمرتَين، وتعِدُ بالأشهى

متى رآها آخر مرة تتعلَّق برقبة وغْدٍ مثله؟ ربما كانت فوق سطح البيت - بيت العائلة - أو خلف ستار الظلام تحت السلم الرخامي.

رمزي! هوه شدّني بالعافية وانا طالعة البيت، ما تقولش لحد.. أنا بحبك يا رمزي وبثِق فيك!

نظرَت لذيل فستانها الذي تكوَّم تحتها أثناء الرقص، فانحنى عريسها سريعًا يُخلِّص ذيل الفستان من بين ساقَيها. اندفعَت فتاتان لمساعدته؛ إحداهما ابنةُ عمه، الأخرى أختُه.. سرعان ما تحرَّرَت ساقاها وانطلقَت تعدو بكعبَي حذائها العاليَين نحو الكوشة، فيما يهرول وراءها العريسُ المغدور.

كانت أجمل في السابق.. أكثر براءةً وخِفَّة، رغم مكرها الحاد، وغنجها المثير!

حمادة شيللي الشنطة لو سمحت.

لطالما كانت تترك حقيبة المدرسة المنتفخة بالكتب، أمام بوابة بيت العائلة، وتُسارع بصعود السلم الرخامي المُلتف حول المصعد العتيق. يظل يراقبُها عبر الشبكة المحيطة بالمصعد، يتأمَّل ساقَيها وسمَّانتيها الشهيَّتَين، حتى تتوارى بالأعلى، مثيرةً شهوته. يحمل الحقيبة ويتبعها مشدوهًا.

جلس المدعوّون يرمقون الشاشة، يتابعون فيديو العروسين؛ صور العريس أولًا، تستعرض بطولته في السباحة والفروسية منذ نعومة أظافره، هراء.. ثم صور العروسة؛ الغنج مجسَّدًا في صورة طفلة، الاشتهاء في طَور التكوين.. أخرج علبة السجائر، وأشعل سيجارة تؤنس وحشته.

نبَّهَتهُ أمُّه: «محمد، صورة مليكة في اسكندرية وانتو صغيرين، إنت اللي واقف ورا خالص ده».

كان يجلب لها مياهَ البحر في دلو بلاستيكي صغير، يسكبها فوق كومة رمالٍ ترتفع بين فخذَيها، ويجلس يُراقبها فيما تبني قلعتَها الرملية في لباس البحر المثير.. تغرز أصبعها في صدر القلعة حين تنتهي، فتصنع تجويفًا يُفضي إلى الداخل، ثم تقف تتأمَّل صنيعتها بافتخار شديد. تطلب إليه أن يحرُس قلعتها، كي لا يهدمها الموج، أو تدوسها أقدام الأطفال؛ يقف لساعات، أو حتى يحين موعد الذهاب.

صورة أخرى في عيد ميلادها، محاطةً بأولاد العائلة. لمح نفسَه في خلفية الصورة، مُنزويًا كالعادة، يلبس قميصًا مغلَق الأزرار حتى عنقه، يرنو عابسًا صوب نقطة بعيدة عن العدسة، إذ لا تكاد تلمحه.

وابل جديد من الصور، يستدعي صيحات وإيماءات المدعوّين، حتى يندفعوا فور انتهاء الفيديو لأجل التصوير مع العروسين، لتسجيل لحظات مماثلة تُبقيهم في محل اهتمام العدسة.

«تعال يا محمد نلحق نتصوَّر مع العروسة»، جذبته أمُّه من يده؛ تبعتهما أختاه.

إوعى يا رمزي مش شايفة منك!

نهرتهُ ذات يوم، فيما يشاهدان فيلمًا أجنبيًّا مع باقي فتيان العائلة. تَزحزَح بجسده فوق الأريكة. كانت تجلس على أحد المقاعد المصفوفة في الخلف، بجوار ياسر، ونادر، وشهاب، حيث لا يرى أيًّا منهم، لكنه يستشعر حركةً غير مفهومة في صف المقاعد. قام تاركًا غرفة المعيشة. انزوى بداخل الحمام المجاور؛ كتَمَ نشيجه.

اندفعَت أمه صوب الكوشة، تسحبه من يده كما القربان، ارتقَت المنصة، تركَت يدَه واحتضنَت العروسة، ومن ورائها ابنتاها، تتقافزان فرحًا، مرَقْن جميعًا خلف أريكة الكوشة.

«يالا يا محمد نتصوَّر!»، نادَته أمه.

اقترب. ارتقى أولى درجات المنصة، وواجه حامل العدسة.

«يا أستاذ.. ارجع لِوَرا لو سمحت.. سيادتك مغطّي على العرايس!»

ظل واقفًا مكانه، يرمق المصوِّر؛ ينتظر انغلاقة العدسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حديث المنفضة

نفض ذو الجلباب بَدَن سيجارته، مُواريًا لحمَها المحروق في منفضة سجائر عطِنة، عليها صورة ملكة فرعونية. ثم أعاد على جليسه العبارة من جديد، مُغلَّفةً في سحابة دخان كثيفة: «احكِ لي الأمرَ من بدايته».

رمقه الآخر بدهشة، وباستسلام كرَّر القصة عليه، منذ استيقظ صباح يوم ميلاده شاعرًا بثِقَل غير مفهوم، فدفَس قدميه في النعل الشتوي، وشدَّ جسمه قائمًا، وتسنَّد على أثاث الغرفة حتى بلغ التسريحة، فقرأ الرسالة مهتزة الأحرف التي ألصقتها زوجتُه فوق المرآة، كما تفعل دائمًا صبيحة عيد ميلاده، ما لم يوافق عطلةً رسمية.

كان ناسيًا اليوم، وذكَّرته الرسالة؛ فقرَّر أن يحلق ذقنه بماكينة حلاقة جديدة، احتفالًا بالمناسبة. وقف أمام مرآة الحمام، وأسبغ على أصابعه رغوةً أكثف من المعتاد؛ كان ذلك حين لاحَظ اهتزاز رؤيته بدرجة أثارَت قلَقه. أضاء مصباح المرآة، وأمعن النظر في انعكاس وجهه؛ كان وجهًا آخر غير الذي يألفه! وجه رجل في السبعين، فيما لم تكد قدمُه تتجاوز عتبة الخامسة والثلاثين إلا اليوم.

جفل لبرهة، مسح الرغوة بمنشفة كانت تُطوِّق عنقه، ودقَّق النظر في الوجه الغريب؛ وجنتاه تهدَّلتا، عيناه ضاقتا ذرعًا من طول ما حاصرَتهما التجاعيد. سارع إلى غرفته، ووقف أمام التسريحة لا يعرف الخطوة التالية؛ طالَع روزنامة كانت مُختبئة خلف علبة المكياج، واضطر لنزع وريقات منها قبل أن يصل ليوم ميلاده؛ إنه نفس اليوم الذي عرفه طوال حياته، عمَّ يبحث إذًا؟!

استخرج البطاقة الشخصية من محفظته، وطالع بياناتها التي يحفظها عن ظهر قلب، عاجزًا عن تحديد ما يبحث عنه؛ لكنه تأمَّل الرقم القومي عدة مرات؛ إنها نفس الأرقام التي يعرفها منذ الأزل، ما الجديد إذًا؟! الجديد أن الفارق بين سنة ميلاده في البطاقة، والسنة التي تكاد تذبل فوق ورقة النتيجة، سبعون عامًا! هي نفس الأرقام، لكن الفارقَ ليس نفسَه، كيف؟ لا يعرف!

ما يعرفه يقينًا هو أنه حتى نام بالأمس، كان موقنًا بعمره؛ خمسة وثلاثين عامًا لا أكثر، تنقصها ليلة لكي تكتمل، ولم تكن هذه الغضون تُحاصر قسماته، ولا كانت وجنتاه مُستسلمتَين للجاذبية الأرضية بهذا الشكل، ولا أوصاله مفكَّكةً لهذه الدرجة.. سرٌّ غامض يحيط به، حياته ما عادت تشبه ما كانت عليه بالأمس.

اتَّصل بزوجته لكي يخبرها بمصيبته؛ صمتَت لبرهة، ثم قالت إنها تجمع الآن أغراض مكتبها بين نوبات البكاء، ولا ينقصها المزيد من العبث والتهريج، يكفيها أنها ستُحال إلى المعاش بعد أيام. فاتَّصل بأقرب أصدقائه، ووجد رقمه غيرَ موجودٍ بالخدمة؛ هاتَفَ منزلَه، فردَّ عليه شابٌّ معدوم الذوق، سارع إلى اتهامه بالجنون من أول عبارة، ووضع السماعة بوقاحةٍ تامة!

عاد إلى الروزنامة والبطاقة، مُحاولًا الإمساك بتلابيب عقله قبل أن يُفلت منه؛ الأرقام كما هي، والفارق ضعفُ المُعتاد! كيف؟ كان شابًّا بالأمس، هذا مؤكَّد، لم يكد ينسى آخر مباراة كرة لِعبَها مع أصدقائه، فيما الجميع يؤكدون عكس ذلك؛

يقولون إنه عاش الحياة طولاً وعرضًا، ويريد الآن أن يتنصَّل من سنين قضاها، وطرُقات وطِئها، ومذاقات استحلبها. هو لا يُنكِر بالكُليّة، لكنه لا يفهم، لا يوقن بشيء، ويخشى انقضاء حياته دون أن ينال حقَّه كاملًا

عاد ذو الجلباب من غيبوبته، وأطلق عبارةً مدغمة بين دفقات الدخان:

«وماذا لو وافتكَ المنيَّة وأنت في الخامسة والثلاثين.. أليس هذا جائزًا؟»

«نعم جائز.. من منّا يعرف عمره!»

«فعَن أي حقٍّ تبحث إذًا؟»

«عن حقي في سنوات احتُسِبت عليَّ خطأً! قد أتقبل الموت لسبب أو لآخر، وفي أي سن، إنه قدرٌ لا حيلة لنا معه، غير أني عندها سأموت شابًّا، ليس عليَّ إلا ما عشتُه بالفعل، لا أحمِل إلا عمرَ زهرةٍ اجتُثَّت من منبتها عن طريق الخطأ.. لكنْ أن يصيبَني الذبول فجأةً هكذا، ثم أُطالَب بتقبُّل الأمر، فهذا غير ممكن!»

دفع سحابة دخان جديدة، وهو يتأمل الوجه الذابل والحدقتين المتوتِّرتين، ثم دفن السيجارة في المقبرة الفرعونية العطنة، وأشعل أخرى قائلًا:

«الحياة عبءٌ لا يُحتمَل، فعلامَ تمسُّككَ بها؟ سَلْني أنا، إذ أقضي بين المقابر أطول مما أمكث في بيتي، وأتابع الأجساد فيما يُواريها التراب، فتنعم بالهدوء والسكينة لأول مرة بعد طول معاناة».

«لكني لا أزال شابًّا، هكذا أعتقد على الأقل؛ ولا زلتُ لم أجد السعادة، ولا وجدتُ إجاباتٍ عن أسئلتي الكثيرة.. لستُ مستعدًّا للموت!»

«وهل تظن أن غيرَكَ وجد الإجابات؟ يا مسكين.. بل إننا جميعًا مساكين، نشغل أنفسنا بتفاصيل لا معنى لها، ثم نفاجأ آخر الأمر بأن الفرصة قد تسرَّبَت من بين أيدينا.. ها أنت تشغل أيامَك الأخيرة بالدفاع عن حق وهمي، وتزج بنفسك في أزمة لا طائل منها».

«يبدو أنك مثلهم، لا تصدقني».

«ليس الغرض أن أصدقك أو لا أصدقك، لكنَّ الأمور ستستوي لديك نهاية الأمر؛ ستخفُت من حولك الضوضاء، وتذهب لعالم الإجابات رأسًا».

شرد الجليس لبرهة، وقد امتدَّت ظلال الدخان فوق جبينه، حتى أردف يقول: «أخشى أن أندم أن فوَّتُّ فرصة المطالبة بحقي!»

«أظنك ستكتشف آخر المطاف أن الحقَّ فكرةٌ غيرُ موجودة خارجَ أدمغة الناس، فكرةٌ تنتُج عن الصراع على الحياة، وتنتهي بنهايتها».

«أفهم من كلامكَ أنك تُفضِّل أن أستعيد مقدَّم التعاقد على الشقة الجديدة، وأشتري به المدفن؟!»

فغَرَ ذو الجلباب شفتَيه عن نصف ابتسامة، وعلق ساخرًا: «قبل ساعة من الآن، كنت سأنصحكَ بهذا، حيث إن لي مصلحةً مباشرة في شرائك المدفن. أما الآن، فإني أميل لأن أصدقكَ القول فحسب؛ لا فرق بين هذا وذاك.. تخلَّص من أعبائك ومن أفكارك البائسة، عِش يومكَ غير آملٍ في الغد، واترك النتيجة إلى المجهول..»

«ماذا لو مُتّ، أين أُدفن؟!»

طوى ذو الجلباب عَقِب السيجارة فوق مقدمتها، ونفَث دخانًا كان يحتفظ به داخل صدره، وقال: «ربما تعني: أين سيُدفن الجسد الذي ستتركه؛ عليك ألا تقلق بهذا الشأن، فالمحيطون بك سيجدون له مكانًا مناسبًا يُخلِّصهم من رائحته. لا تشغل بالك».

ومدَّ نحوه علبة السجائر، فقبِلَها أخيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قميص لتغليف الهدايا

كان البرد قد استقرَّ عميقًا أسفل الجلود، وراح ينخُر العظام دون ترفُّق، وبدا الضجر المكتوم على وجوه الواقفين منذ ساعات في انتظار سيارة الموتى، وفي حركاتهم البطيئة الهامِسة؛ إذ يُشعل أحدهم سيجارة تؤنِسه وتنفث الدفء في أوصاله، ويستند آخر لسيارة مركونة غير عابئ بطبقة التراب، بعدما أنزل آخِرُ الدكاكين الصغيرة القريبة بابه المعدني، فتداعى آخِرُ أمل في تزجية الوقت.

الكلام؟ ما عاد هناك كلام يُقال؛ كل شيء قيل، من عبارات المواساة التقليدية وكلمات الترحُّم المعتادة على جميع أمواتنا وأموات المسلمين، إلى الأقاويل المتضاربة حول سبب الوفاة، وعن الأنظمة الصحية المشكوك في كفاءتها لكبرى الدول الشهيرة بالعلاج، حتى مصمصة الشفاه وُضِعَت في وقفات الصمت فيما بين العبارات، والأسئلة العادية معروفة الإجابات، قيلَت غير مرة، والسؤال – همسًا - عن الوقت، والسؤال – جهرًا - عن إجراءات الدفن ومكان التُّرَب، وعن إمكانية استدعاء التُّربي في ساعة متأخرة كهذه.. كل هذا قيل، قبل أن يحِلَّ صمتٌ ثقيل موَتِّر، ويُجمِّد الوقت ويكشف برودة الجو، وفراغ اللحظة من أي عِبرة محتمَلة.

لم ينتبه أكثرهم حين وصلَت السيارة وأنارَت بفوانيسها سطح الشارع وتعاريجه. تنبَّهوا فقط حين اضطرب والد الفتاة الصغيرة المتوفّاة، وقطع الرصيف بخطوات تتخبَّط داخل مِعطفه الصوف. تحرَّكوا في أثره دون صخب يُذكَر، وراحوا يراقبون السيارة فيما تعتلي الرصيف، وتفتح بابها الخلفي كما فمٍ يلفظ لِسانه.

تردد البعض في التقدُّم لحمل النعش الصغير، وأخذوا جميعًا يتأمَّلونه بفضول؛ كان نعشًا عجيبًا مُضلَّع الشكل، أبيض لامعًا، له مقابض فضية براقة، محفور الغطاء بصليب من معدنٍ برّاق. راحَت العيون تتبادل أسئلةً شتى وتكهُّنات غير معلَنة، حتى تطوَّع أكثرهم شجاعةً - أو ضجرًا من تأخُّر الوقت - بحَمْل النعش لداخل المسجد، واستدعاء الإمام لصلاة الجنازة.

كان الداخل أدفأ قليلًا، ربما بسبب الحركة التي دبَّت أخيرًا في الأجساد، لكن سرعان ما استعاد الجمود سُلطته، وتفرَّق المنتظِرون بين جالسٍ على أقرب مقعد، ومتربِّع على الأرض، ومستنِدٍ لعمود رخامي مثلَّج، فيما تحلَّق أكثرهم حول النعش الصغير الموضوع على الأرض، يتسمَّعون الحوار الهامس بين الأب المرتبك، وإمام المسجد الوقور، إذ قال الأخير:

«أرى أن نفتح النعش وننقل الجثمان لخشبة المسجد، ثم نُصلّي عليها ونتوكل على الله».

فقال الأب: «شركة الشحن أبلغَتنا أن النعش موصَد بمسامير، ملحومة الرؤوس بالرصاص، وهذا ما سبَّب تعطيلًا كبيرًا في المطار».

فتبسَّم الشيخ، وراضى الأب بقوله: «أيُرضيك أن نردَّ وديعة الله داخل صندوق موشوم بالصليب؟»

تمتم الأب بارتباك واضح: «كل النعوش هناك على هذا النحو! لم نجد نعوشًا بلا صلبان، وقد رفض المستشفى تسليمنا البنت دون نعش ملحوم بالرصاص..»

فقال الشيخ: «كان الله في عونك يا أخي، إنما يُوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب، لا أسألك إلا المزيد من الصبر.. نُخرج الجثمان، ونُصلّي على الفتاة».

تابعَت العيون إمام المسجد فيما يدلف لداخل غرفته، تاركًا الجمْع يتخبَّط في حيرته. «معه حق»، قال البعض، فردَّ آخرون: «تعنُّت بلا مبرر»، «تشدُّد ومغالاة»، «تأخَّر الوقت ولن نجد التُّربي صاحيًا.. لن تنتهي هذه الليلة!»

فيما انبرى عددٌ من العمَليّين في محاولة فكِّ الغطاء، واستجلاب آلاتٍ من سياراتهم القريبة حين استعصى الأمر عليهم. مضى الوقت في محاولات يائسة، وتحوَّلَت حلقة الرجال لورشة تصخب بالدق والتخبيط، حتى تفاقم انفعال الأب الشاب وطلب إليهم التوقُّف فورًا عن المحاولة، وتوجَّه فور استعادة الهدوء لغرفة الإمام، فغاب طويلًا بداخلها ثم خرج وقد تجمَّد وجهه على هيئة العبوس؛ «نحتاج لمتخصِّص في فض الأقفال والمفاتيح»، قال لهم، فراح البعض يشد أزره بربتات هينة على كتفَيه، وآخرون يستدْعون ذاكرة الهواتف المحمولة باحثين عن صانع أقفال.

مر قرابة ساعة أخرى حتى حضر الصانع، ونُقِل النعش الأبيض الصغير لداخل غرفة الإمام، التي تحوَّلَت سريعًا لورشة حِدادة مصغَّرة، فراحَت المسامير الملحومة تفرقع بضجة رهيبة أشبه بطلقات الرصاص، وانتشرَت في الهواء رائحة الشياط مع الشرَر المتدفق في كل اتجاه، كأنه نافورة مياه.

أخذ الغطاء الأبيض الناصع يتهبَّب بالسواد، ويتخلخل أكثر فأكثر مع كل طلقةٍ يتداعى معها مسمار عنيد. واستمر الصانع يحاول انتزاع الغطاء كلما انشقَّ مسمارٌ في موضعه، غير أن محاولاته لم يُكتَب لها النجاح التام، حتى بعد حلحلة جميع المسامير. فقد كان قفلٌ وحيد في انتظارهم بعد انتهائهم من اللِّحامات، اكتشفه الصانع حين حاول رفع الغطاء فلم يرتفع؛ شرح لهم أن القفل مخبَّأ في باطن الغطاء، بحيث لا يَبين من الخارج

«أين صُنِع هذا النعش؟»، سألهم، فساد الصمت لبرهة، حتى تبرع أحدهم بإجابته: «في إيطاليا»، فعلَّق الصانع: «شغل فاخر!»، وازدرد الأب ريقًا غصَّ به حلقُه، وبدا عليه المزيد من الاضطراب حين تأهَّب الصانع لفضِّ القفل الحائل بينهم وبين كشف الغطاء.

«لحظة من فضلك»، استوقفه الأب، فنظر إليه الجميع متسائلين عما اعتراه، فقال بارتباك: «ممكن تتركوني مع الأسطى لوحدنا خمس دقائق؟»، فلم يجد منهم غير الصمت، والاندهاش، حتى تبرَّع أحدهم بقوله: «هيا يا جماعة، لنتركه قليلًا.. هيا يا إخوانا»، واستمر يربِّت ظهورهم واحدًا واحدًا حتى فرغَت الغرفة إلا من الأب، والصانع، وإمام المسجد، فالتفت الأب نحو الإمام، وقال له: «بعد إذن فضيلتك، خمس دقائق فقط»، فاستغرب الإمام، ولمَّ جُبَّته الصوفية حول بدنه، وخطا ببطءٍ تاركًا الغرفة.

وقفوا جميعًا لِصق باب الغرفة مترقبين لما يحدث داخلها، واضطربوا حين سمعوا القفل يطلق السرَّ المكتوم، إثر خبطةٍ واحدة من الصانع. تبادلوا النظرات، كأنما السؤال المنطقي الوحيد: هل ندخل الآن؟، غير أن أحدهم لم يتجرَّأ على فتْح الباب، فأحسَّ البعض بطعنة نافذة، أن يُستكمَل كشف الغطاء دون حضورهم، بعد كل هذا الصبر.

ثبَّت الأب الغطاء قبل أن يرفعه الصانع، وأومأ إليه حتى يتبع الرجال إلى الخارج، مخرجًا محفظته ومجزِلًا له العطاء. وعاد لكي يكشف غطاء النعش عن صغيرته، وحيدًا هذه المرة.

كان الغطاء قد تهبَّب تمامًا بعد عملية الفتح، وكذلك اسودَّت يدا الأب، فراح يمسح الهباب عن كفَّيه في المعطف الصوف، فيما ينظر بعينَين مبرِّقتَين نحو فتاته النائمة بداخل النعش، محاطةً ببطانة لـمِّاعة من الساتان الأبيض.

كان قد سلَّم النعش لإدارة المستشفى، وسارع بالعودة لمصر حاملًا تقارير الأطباء، حتى يستخرج تصريح الدفن، تاركًا زوجته هناك تُنهي إجراءات شحن الصغيرة وتسلُّم الجثمان. لم يكن يعرف ما تمَّ في غيابه، ولا مَن قام بشراء هذا الفستان الأبيض المنفوش، كأنه لعروسٍ صغيرة، ولا مَن قام بتزيين وجه فتاته على هذا النحو البديع، فمنحَها حُمْرةً أبديةً لم يرَها على وجهها منذ أعوام، حتى أظافر البنت، بدت مشذَّبة ومصبوغة الحواف باللون الأبيض، على الطريقة التي كانت تُحب، قبل زمنٍ ما عاد يذكره.

الآن يتذكَّر كل شيء، ويرى كل شيء، يمتنُّ لأشياء، برغم يأسه الشديد، وشعوره بأن الحياة لن تكون ممكنةً بدءًا من الغد، لا شيء ممكن، لا طعام ممكن، لا عمل، لا نوم، لا أي شيء.. غير أن عروسَه بدَت جميلةً في نومها، بلا تقطيبة ألم، ولا حشرجة نَفَس تؤلمه وتشرخ صدرَه.

وضَع الغطاء بهدوء لكي لا يُقلِق نومها، وفرش سجادة صلاة سحبها من كرسيٍّ خلف مكتب الشيخ، ووقف أمام النعش يُصلي عليها وحيدًا. وحالما انتهى، خلع معطفه السابغ، وأعاد مسح كفَّيه جيدًا في سطحه الصوفيّ، ثم فكَّ أزرار قميصه الأبيض وخلعه بهدوء، وقام بفَردِه فوق النعش الأبيض الصغير، وطَيِّ كُمَّيه أسفل قاعدته، كما هديَّة سيرسل بها إلى الله

أما المنتظرون بالخارج، فقد انتابهم عجبٌ تام حين فُتِح بابُ الغرفة، وخرج إليهم الأب مرتديًا معطفه فوق فانلته الداخلية، حاملًا نعش فتاته الصغيرة مغلَّفًا بداخل قميص أبيض. وجدوه يعبر به وحيدًا لخارج المسجد، ويتوجَّه لسيارته المركونة أمام الباب. وضع النعش ببطءٍ فوق المقعد الخلفي، وحاسب سيارة الموتى بأكثر مما طلب السائق، ثم ركب سيارته وأدار الموتور، وابتعد بهدوء، كاشفًا عُري الشارع بنور سيارته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

سيد المئذنة

سبعة، ثمانية، تسعة.. كان يعُد الدرجات فيما يصعد سلم المئذنة الحلزوني، الضيق؛ عادته التي لم يفتُر يومًا عن التلذذ بها، منذ اختار قمة المئذنة مركزًا لحُكمه، يُتابع منه رعيَّته، يمارس سطوته، يُراقب العالم في صورته المُنمنمة التي تستهويه.

ثمانية وعشرون، تسعة وعشرون، ثلاثون.. من هنا، ورغم دُكنة الليل، يمكنه رؤية الغيطان المنبسِطة كثَوب أسود رقراق، النخلات المُقزَّمة البعيدة، السَّحّارة الممتدَّة عبر المصرَف الصغير، الجسر الترابي، الذي يميل راكعًا عند مدخل البلدة، يرى حتى ذؤابة برج الحمام ذات الأشواك، وعروق الخشب البارزة أسفل قبعته، والأهم، يرى سطح المسجد ماثلًا أمامه بوضوح تام، حيث يترك رعيَّته مساء كل يوم، ويرقى المئذنة ليُشرِف عليهم.

ثلاثة وخمسون، أربعة وخمسون، اكتمل العدّ.. بإمكانه الآن أن يستريح. مسح كرسيَّ عرشه بكفِّه الخشنة، واقتعده. التقط الجوزة من تحت الكرسي، وضعها فوق سور المئذنة العريض، بجوار صفَّين من الطوب المُهبَّب كان قد أعدَّهما لإشعال الفحم، غرَف حفنةً من «طَفْش» الخشب، ووضعها بين صفَّي الطوب، مع قليل من قُصاصات الورق الجاف، أشعَل بقدّاحته الأوراق الهائشة، فبرزَت منها ألسنة النار وأمسكَت أطراف الخشب. مدَّ سيخَين من الحديد فوق الكومة المشتعِلة، وفرَد فوقهما قطعة من سلك البقلاوة مطويَّةً لعدَّة طبقات، وأخذ يرصُّ سماسِم الفحم فوق قطعة السلك، بتنسيق منتظم لا يمل أبدًا من تدقيقه، وجلس يتابع الفحم فيما يتأجَّج ببطء.

بعد قليل قام من مجلسه. وقف مُتكئًا على السور العريض، يُشرف على البقعة المُعدَّة لمبيت العابرين، ويرمق بعينَين متمرِّستَين صفوفَ الأجساد المرتصَّة فوق سطح المسجد، مُنسَلًّا بنظراته بين فتحات المظلة التي تعلوهم. يبحث بين الأجساد عن حركة متوتِّرة، غير اعتيادية؛ لو لمَح إحداها هنا أو هناك، سيتناول حصوة من جوال الحصى المُعَد لهذا الغرض، ويُسدِّدها بدِقة صوب الجسد الآثم، سيتألَّم ذلك النجس في صمت، ثم يُعاود النوم. لا يسمح بمثل هذه المهاترات في دولته الصغيرة؛ تلك التي جاءها طريدًا منذ زمن ليس ببعيد، فإذا بها تجعل منه حاكمَها الأوحد.

الآن توهَّجَت سماسم الفحم. فضَّ لفافة السيلوفان التي تُغلِّف الطومباك المخصوص- طومباك البت بطَّة ذات الجسد المدملج- وبدأ يرصُّ أول حجر، ثبَّت الحجر في قصبة الجوزة، وجلس يشدُّ الأنفاس وقد اطمأنَّ لاستِتباب حُكمه وطاعة رَعيَّته.

سبعة أعوام تفصله عن أول ليلةٍ يبيتُها تحت سقف هذا المسجد، الذي لم يُغادره قط منذ تلك الليلة البعيدة. كان آنذاك مُجنَّدًا في الجيش، لم يبلغ العشرين بعد، على الرغم من هيئته المقدودة من حجر، والتي توحي بسن أكبر بخمس سنوات على الأقل. كان لا يزال عبدًا مملوكًا، لم يذُق يومًا طعم السيادة، لا يملك شيئًا من نفسه إلا الغضب المكتوم، تُمسك بخناقه قبضةُ صولٍ لا يعرف الشفقة، وكان قد تذلَّل طويلًا لجناب الصول، حتى سمحَ له بإجازة قصيرة، يوم بليلة، يسافر خلالها لتوقيع عَقد بيع البيت في كفر الشوايشيَّة، فلا يمكن لأحد غيره أن ينوب عن إخوته الصغار في بيع البيت،

بعد وفاة أبيه، سيقوم بعد ذلك بإيداع المال في بيت خاله في سندنهور، ثم يعود من فوره إلى المعسكر قبل طابور الصباح. حمل مخلته وغادر فور سماع كلمة «غور» من فم الصول مرتضى، وانحشر بحِمله بين عربتَي قطار مكدَّستَين بالركاب، حتى بلغ محطة الزقازيق، ومنها ركب البيجو السبعة ركاب، حتى موقَف سيارات الأجرة على مشارف الكفر.

انتظر طويلًا في بيت أبيه حتى وصل الشاري، كاد يفقد الأمل في حضوره بعد أربع ساعات كاملة قضاها بصحبة أكبر أعمامه، يرتجل الكلام ويُعيد السلامات كي لا يملّ عمه الانتظار، ويتركهُ وحيدًا في مواجهة هذا الموقف العصيب، لكنَّ الرجلَ حضر نهاية المطاف بصُحبة الوسيط، فجلس إلى الطبليَّة بجوار العم معتذرًا عن التأخير. أبدى العم بعض استيائه من ضياع برَكة ساعات النهار، فاعتذر الرجل بظروف الطريق وجمع النقود من عدة أطراف، وأصرَّ أن يدعوهما لتناول الغداء في البلدة المجاورة قبل أن يضع توقيعه في ذيل العقد؛ قال له العم: «ما يصِحّ، أنت ضيفنا ولا يمكن إلا أن نُضيِّفك هنا، بداخل البيت»، فحلَف الشاري يمينَ الطلاق ثلاث مرات إن لم يستجِيبا لدعوته، «يكفي أني عطَّلتُكما طوال النهار»، فاضطرّا تحت ضغط إصراره للموافقة.

استغرق الغداء زهاء ساعة، والشاي مع النعناع وأحجار القصِّ ساعة أخرى، بخلاف اللتِّ والعجن في الفارغ والمليان، فإذا بشمس المغيب تسقط خلف الأفق الداكن. ومع أول لدعة من بعوض المساء، أحس برعدة الخوف من تأخر الوقت. اضطر لمقاطعة حديث الشاري، الذي لم يلتقط نفَسه منذ وصلوا المقهى، قائلًا: «بعد إذنك يا خال، أنا في عجلةٍ من أمري»، فقال الرجل: «هما ورقتان سنوقِّعهما بحضور الشهود، وتذهب مصحوبًا بألف سلامة» وبالفعل، قاما بتوقيع العقد بصحبة الشاهدين، العم والوسيط، دون تعقيدات أو مزيد فِصال، فاستلم حقيبة النقود وأمسك مقبضها بيده الشاغرة، فيما الأخرى مشغولة بمُصافحة المُهنِّئين.

تردَّد بين الذهاب بحقيبة المال لبيت خاله في سندنهور، وبين التوجُّه نحو المعسكر مباشرةً، خشية التأخُّر على الصول مرتضى، وبهذه الحيرة تحدَّث مع المحيطين به، فتضاربَت الآراء فيما بينهم، وإن مال أكثرهم نحو الصبر والتروّي قبل اتخاذ القرار. تكفَّل أحدُ المرافقين للشاري بتفزيعه من أي تأخُّر إضافي، خاصة وفي حوزته مبلغ كهذا، «الأفضل أن ترحل في التو واللحظة، قبل دخول الليل عليك»، وعرض عليه أن يُقلَّه بسيارة الحاج- شاري البيت- حتى موقَف الكفر كسبًا للوقت، ومنه يركب البيجو وينطلق بسلامة الله. وهكذا سلَّم على الجميع ومضى بصحبة الرجل الكريم.

ثم حدث ما لم يكُن أبدًا في حسبانه، فقد فرغَ الوقود من سيارة الحاج في منتصف الطريق الأسفلتي المتشقِّق، الموصِل إلى أطراف الكفر، ما اضطرَّه لشكر الرجل أن قطع به هذه المسافة، والانطلاق سيرًا على قدمَيه حاملًا مِخلَته وراء ظهره، ومُحتضِنًا حقيبة النقود لصق صدره. سار بهمَّة بمحاذاة الطريق آملًا أن يبلُغ العَمار، وعند أول انحناءة يمرُّ بها برَز خفيرٌ من أحد الغيطان، وعرَض عليه شُرب

الشاي المنصوب على النار، ناصحًا إيّاه ألا يستكمل السير في هذه الناحية، فقطاع الطُرق لا يتركون عابرًا على قدمَيه في حال سبيله.

«عليَّ أن أعود للمعسكر يا خال»، أخبر الخفير، فقال الرجل: «يا بُنيّ لا تُجازِف، هناك ألف حجَّة وحجَّة تبرِّر بها تأخُّركَ، فلا داعي للمخاطرة».

قال الخفير إن بإمكانه مجالستَه حتى يطلع النهار، أو لو شاء المبيت في المسجد القريب، فسوف يجده على بُعد خطوات، هناك يستطيع أن يفرد جثّته، وأشار نحو مئذنة مرتفعة تتغرز بمفردها في لحم السماء. اطمأن قلبه لمرأى المئذنة، وارتاح إلى النوم في سِترِ الله الحفيظ، ما جعله يختار البقعة الملاصقة لمنبر المسجد بالذات، حتى ينام في كنَفِ المنبر المرتفع، فيشعر بالونَس. وضع المِخلة تحت رأسه، وحقيبة النقود خلف ظهره محصورة بينه وبين جدار المنبر، ثم أسبل عينيه استعدادًا للنوم، فيما يُفكِّر في الأسباب التي سيسوقها للصول مرتضى تبريرًا لتأخُّره، آملًا أن يجدها قد انطبعَت في ذاكرته حين يصحو قبل الفجر. كان التعب قد نال منه كل منال، وسرعان ما ارتفعَت أنفاسُه واسترعَت سمعَ خادم المسجد، ذلك العجوز ذو اللحية البيضاء الهائشة، الذي سحَب من قلب المحراب سجادةَ صلاة مهترِئة الحواف، وغطّى بها عابر السبيل الذي راح سريعًا في النوم.

ومن أعمق لحظةِ سكون في جوف الليل، تسلَّل السارق، ومن سِتر المنبر العالي ودِفء سجادة الصلاة استلَّ الحقيبتَين؛ المِخلة وحقيبة النقود. كانت الخطة مُرسومَة بدقة، بدءًا من تأخُّر الشاري عن الموعد المضروب، مرورًا بالغداء والشاي وأحجار القصِّ، واللتِّ والعجن والعقود والشهود، ثم السيارة وتعطُّلها فوق الأسفلت المتشقِّق، والخفير ونصائحه، والمسجد ومئذنته، وصولًا للسارق المُنسلّ في هدأة الليل يستهدف الحقيبتَين. نشَز عن الخطة المرسومة أمرٌ وحيد، هو وجود خادم المسجد العجوز في الميضأة مُطفأة الأنوار، لحظة وصول السارق، كما مفاجأته عند باب المسجد لحظة خروجه حاملًا الحقيبتَين. كبَّر العجوز بفزع الآمنِ طوال حياته، فاستلَّ اللص مطواته المعقوفة، ودسَّ بغتتَه في قلب العجوز، وانبجسَت الدماء غزيرةً مع خروج النَّصل الحاد. انكفأ الخادم فوق الحاجز الخشبي الذي يفصل باحة المسجد عن المصلّى، فاستيقظ النائمُ بجوار المنبر على الصراخ المحشرج المفجوع، وراح يصرخ هو الآخر مُسترعيًا أهل البيوت المجاورة.

مرَّت لحظات قبل أن ينتبه لسرقة الحقيبتَين؛ قبل إدراكه فداحة الموقف، حقيقة ضياع كل أمواله، كل أوراقه، هويَّته، بِيادته، مخلته، مستقبله.. حتى إن أحد المتجمِّعين حاول أن يُكبِّده المزيد، فاتَّهمه بقتل الشيخ الورع، فيما دعا شخصٌ آخر الجميعَ لأن يستهدوا بالله العلي القدير، وحاول آخران إسعاف العجوز بكتم الجرح الغائر بطاقيته الصوفية، لكن سرعان ما أسبلا جفنَيه، وأخذا يُلقِّنانه الشهادة التي كان أحوج إليها قبل قليل.

وحين هدأ الجمع، ذهب البعض يستدعي من يُتقِن الغُسل، بينما التفَّ الباقون حول الشاب المفجوع يدعونه للتريُّث وتدبُّر الأمر؛ استهدِ بالله وفكِّر بهدوء، لا أمل لك في العودة للمعسكر، هكذا قالوا له، سيفتك بك الصول الغشوم، سيحبسك، سيزج بك

أمام محكمة عسكرية، قد يطلبون رقبتك مقابل المِخلة، كما أنك بلا أوراق، ليس بحوزتك هويَّة، لا مال ولا ظهر ولا سنَد. فأين تذهب يا ابن الحلال؟ ابقَ هنا، لن يعرفوا لكَ طريق جرَّة، هذا المسجد غير تابع للأوقاف، يقتات على الصدقات القليلة وبطاطين الشتاء، كان الخادم العجوز عليه رحمة الله يُحصِّل الصدقات والبطاطين، ويقوم بتوزيعها مقابل قروش زهيدة تُعينه على العَيش. كُن خادمًا للمسجد عِوضًا عن الشيخ، فلربما ابتلاكَ الله بهذه المحنة كي يكتب لكَ الخير.. من يدري.

مع كل يوم يمرُّ عليه، كان يزداد تورُّطًا في هذه الكذبة، تنغرس قدماه في مصيبة التهرُّب من التجنيد، فلا يجد مفرًّا من البقاء في المسجد الكبير، خاصة مع تمسُّك أهل البلدة به. وفي المقابل، كان ملاذَهم من نضوب الصدقات، لفَّقوا لأجله ملابس أزهرية تكاد تكون مُقنِعة؛ قلنسوة حمراء كالحة، عمامة مهتوكة النسيج، جلبابًا لا يستر ساقَيه بالكامل، وراحوا يتناوبون فيما بينهم إعداد طعامه وغسيل ملابسه، حتى يقضي الله في أمره. وكان كلما انفرد بنفسه في محبسه الفسيح ذي السقف المرتفع، يقرأ فصولًا من «رياض الصالحين»، من «المورد العذب»، ويردِّد خطبًا من «خُطَب الجمعة والعيدين»، يحفظ منها ما تيسَّر حِفظُه، ويضع قصاصات الأوراق ليُعلِّم خُطَب المناسبات التي ستحِلُّ قريبًا، ويُدرِّب نفسه على ارتقاء درجات المنبر وإلقاء السلام من أعلاه، حتى أمسى إمامًا للمسجد لا خادمًا فحسب، ولكثرة ما استمع بإنصاتٍ شديد لإذاعة القرآن الكريم، اكتسب نبرَ الأزهريّين ونُطقِهم المميَّز، فصار مُستحِقًّا لزيِّهم ممتلئًا بثقتهم، وبفضل وجوده وسمته المقنِع زادَت الصدَقات، وتراصَّت البطاطين من فَيض الأثرياء في النجوع المحيطة، فصار الناس يؤمّون المسجد نهارًا لطلب الإحسان والثواب، وليلًا للمبيت.

كان أكبر مساجد الناحية؛ بناه قديمًا أحد الأعيان من أحزاب المعارضة، وصمَّم ألا يتبع مسجده الأوقاف، ثم مات الرجل وبيعَت أرضُه لصغار الفلاحين، ولم يبقَ من أثره إلا المسجد المطل على الطريق المسفلت، ساترًا وراءه بيوت البلدة. وعلى عكس المعمول به في مساجد الأوقاف، كان المسجد لا يُغلق أبوابه في وجوه العابرين، ولا يضيق بالعمال الوافدين لمواقع إنشاء الكباري الجديدة على الطريق الزراعي. ومع اشتداد البرودة في أول موسم شتويّ، هبطَت على المسجد بطاطينُ الشتاء كالمنِّ والسلوى، فصار الشيخ الأزهري الشاب يستقبل المتبرعين، يُقدِّم نفسه باسم الخادم الراحل، وبصِفته المسؤول ليس عن هذه البلدة فحسب، بل عن جميع نجوع الناحية، ويطلب من أهل الخير ضعف ما يحتاجه الناس من بطاطين، ثم يمنح القطعة مُقابل عشرة جنيهات توضَع في صندوق عمارة المسجد، مع الكثير من صادق الدعاء.

تكوَّمَت البطاطين خلف المنبر، ثم بداخل غرفة الإمام حتى كادت تُلامس سقفها الواطئ، ومع تزايُد الأعداد لجأ لتخزينها فوق سطح المسجد، وفكَّر في صنع مظلَّة من المشمَّع الثقيل تقي البطاطين من الأمطار المحتمَلة في هذه الفترة من العام، وبعد انتهائه من تثبيت المظلة، وقَف يتأمَّل صَنعة يدَيه ويتفكَّر في فرص تطويرها، فإذا بالفكرة تولَد أمامه من وحي اللحظة.. ها هي دولته الصغيرة تنشأ تحت سماء المظلَّة الخفيضة، وتنبسط أمام عينَيه كلما مدَّد بصرَه في أي اتجاه. كان يتأمَّل المساحة

الفسيحة بين قبَّة المسجد، المرفوعة فوق قاعدة عالية تحفها الشبابيك من كل اتجاه، وبين العرائس المصنوعة من الجبس التي تحاوط السطح، ورأى إمكانية تجهيز مكانٍ جهة الغرب لمبيت العابرين والعمّال الوافدين، بدلًا من تركِهم يبيتون بداخل المسجد.

شرع من فوره يمد الحبال ويثبّتها على ارتفاع قامة متوسطة، بين العرائس الجبسية وقاعدة القبة، ثم شدَّ عليها حوافَّ البطاطين وخاطَها بالدبارة السميكة، فصارت مظلَّة تستر النائمين أسفل منها؛ تمنع عنهم هبّات الليل الباردة وسياط الضوء مع طَلعة النهار. ومنذ أنجز المظلة صار لا يسمح بمبيت أحد داخل المسجد؛ مَن يرغب في المبيتَ فمكانه فوق السطح تحت مظلَّة البطاطين، وله أن يحصل على فَرشةٍ ينام عليها نظير صدقةٍ يضعها في صندوق عمارة المسجد، لا تقِل عن عشرين جنيهًا، صارَت ثلاثين بعد أشهر قليلة مع تزايُد الطلب، وراحَت تربو فوق ذلك مع مرور الوقت.

ومع مرور الوقت أيضًا تراكم المال في صندوق عمارة المسجد، ما جعله يُقلِّب فكرة الزواج من بطَّة- بائعة الدخان- على جانبَيها، لكنه مال نحو الحفاظ على هيبته حديثة العهد، فاكتفى بمرورها السريّ عليه لتزويده بالطومباك، وارتضى من متع الدنيا بمشاهدة ارتصاص النائمين فوق سطح المسجد أسفل المظلَّة، حتى صار أحبَّ المشاهد لقلبه؛ يُشرف عليهم من مجلسه أعلى المئذنة، يشدُّ أنفاس الطومباك اللاذعة، ويُحصي الأبدان كراعٍ يحصي نعاجه، يؤدِّبهم لو لزم الأمر، بحصوة هنا ورَجمة هناك، تأتيهم من أعلى كعقاب ربّاني مستعجل.

هنا، هو السُّلطة الوحيدة المطلقة، يصير أعلى هذه المئذنة مَلِكًا يُمسِك بزمام مملكته، يُسيِّرها كيفما يشاء. لا حاجة به إلى الذهاب بعيدًا عن حدود دولته. هنا يعُدُّ درجات المئذنة صعودًا كل يوم، يحصي الأنفس والأنفاس، يتأمَّل صيرورة حياته ويزداد اعتزازًا بما آل إليه، وإن كان ثمة شعورٌ غامض بالقلق يُنغِّص عليه، كأنه غُصَّةٌ تسكن الحَلْق، يودُّ لو ينساه ولو لبرهة، فيُصفِّر لحنَ أغنيةٍ قديمة ما عاد يذكر مطلَعها، كانت تُؤنس لياليه أيام الخدمة، ويدفع سؤال الماذا بعد لأبعد نقطةٍ ممكنة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

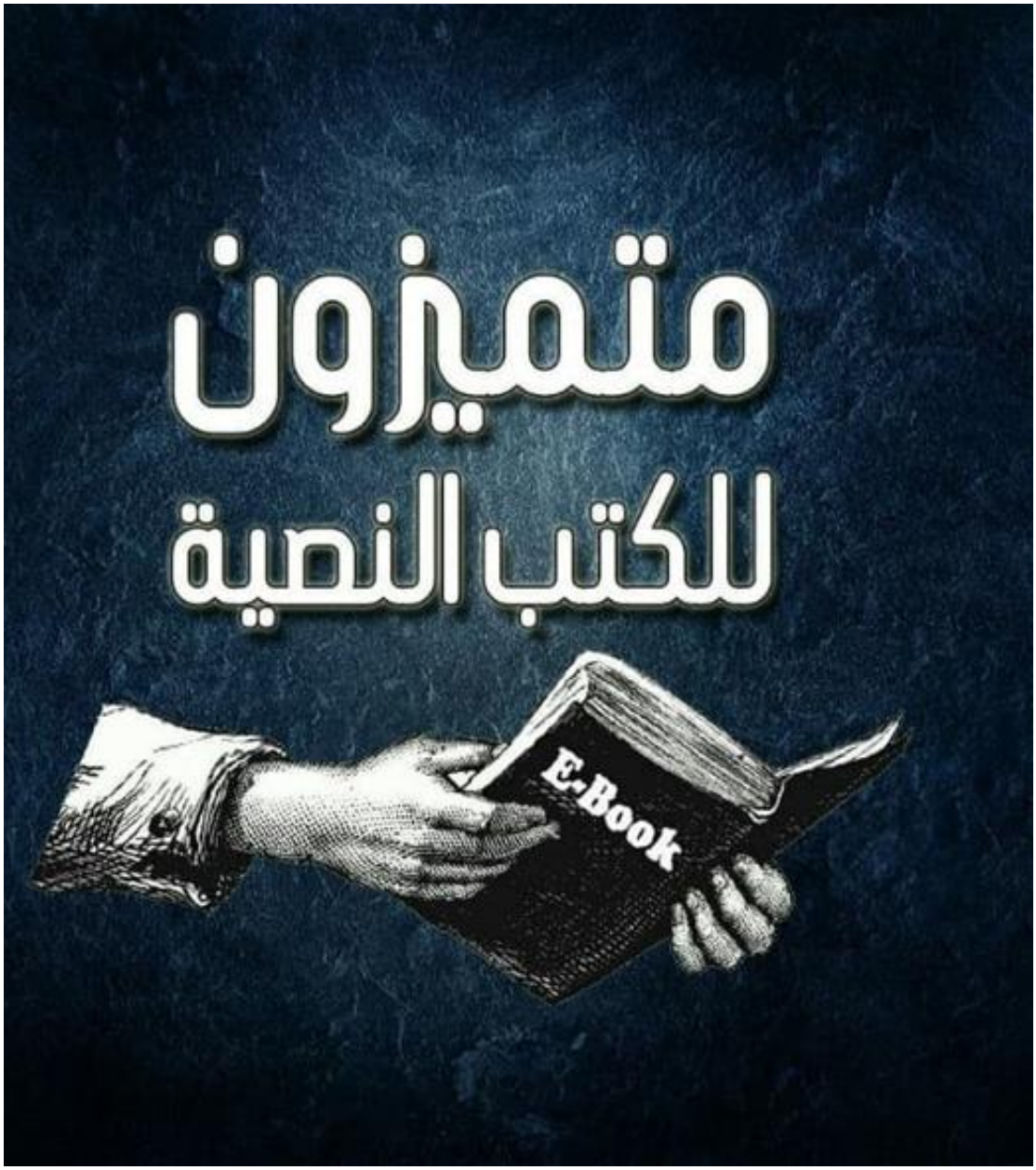
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

إهداء خاص

صلاة ق 4

بيت من جير

الموت على صدر السندريلا

سجال الليل الصامت

كفان وأربعة أصابع

صفحة بيضاء

خزانة المائة نفس

وليمة الحواس

الأحجيَّة

موت حلو المذاق

بيت الخالة أخت الأم

في الركن المظلم

قانون الخبز

كادر

حديث المنفضة

قميص لتغليف الهدايا

سيد المئذنة